في فلسفة برادلى

نظرية الصدق عند برادلى



الدكتور
محمد توفيق الضوى

الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية
جلال حزى وشركاه




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناشر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه
٤٤شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الاسكندرية – ت/ف ٤٨٧٣٣٠٣/٤٨٥٣٠٥٥
٣٢ شارع دكتور مصطفى مشرفة – سوتير – الاسكندرية ت/٤٨٤٣٦٦٢/٤٢٥٤٣٣٨
الادارة: ٢٤شارع ابراهيم سيد احمد – محرم بك – الاسكندرية ت/ف ٣٩٢٢١٦٤
EMAIL: monchaa@maktoob.com

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق:

اسم الكتاب : نظرية الصدق عند برادلى

اسم المؤلف : د. محمد توفيق ضوى

رقم الايداع : ٢٠٠٣/١٦٣٦٩.

الترقيم الدولى: 4 - 1213 - 03 - 977

التجهيزات الفنية:

طبـــــاعة : شركة الجلال للطباعة ت: ٤٤٩١٢٤٤

في فلسفة برادلى

نظرية الصدق عند برادلى

دكتور

محمد توفيق الضوى

الناشر

منشأة المعارف بالاسكندرية



تصدير

-١-

للصدق نظريات خمس هى التطابق والاتساق والبراجماتية والسيمانتية ونظرية الإضافة غير الضرورية، وقد استوعبت هذه النظريات أهم الاتجاهات الفلسفية المعاصرة، فتوجهت كل نظرية نحو اتجاه محدد، فالتطابق للمذهب التجريبى والبراجماتية والسيمانتية، ونظرية الاتساق للمذهب المثالى، ونظرية الإضافة للاتجاه المنطقى المعاصر.

أما بالنسبة لموضوع دراستنا فهو الصدق فى الفلسفة المثالية عند الفيلسوف البريطانى هربرت فرنسيس برادلى (١٨٤٦ - ١٩٢٤) الذى توجه بطبيعة الحال نحو نظرية الاتساق.

يمثل برادلى امتداداً للفلسفة المثالية المطلقة التى وطد دعائمها الفيلسوف الألمانى هيجل (١٧٧٠ - ١٨٣١) وإن كان ثمة اختلاف بينهما فى الموضوع والنظرية، ولكن الاتفاق كان فى المنهج والهدف.

جمع برادلى بين أسلوبين هما: عمق المثالية بصفة عامة ورجاحة الفكر الإنجليزى المعاصر فى كافة اتجاهاته الفلسفية، ولذلك لم يهم فى تجريدات خالصة ولم تتوجه مثاليته نحو اللا تعيين واللا تحديد، ولم يكن مبتعداً عن الواقع البتة، كانت نظرياته محكمة وجريئة وقوية، عرض أفكاره فى شجاعة ولم يخش النقد، واسترسل فى تحليلاته ولم يهب صعوبتها. ومن أهم ما قام به فى رأينا هو تحديد العلاقة بين الكل والجزء، بين الفردى والعام، وتوثيق الصلة بين الفكر والوجود، أو بين العقل والواقع، ولذلك لم تكن مثاليته بحثاً فى مثل أفلاطونية مجردة، وإنما كانت فى العالم الواقعى بشرط أن ينظم العقل هذا العالم.

أكد برادلى على العقل الشخصى المنظم للوجود ولذلك لم يتحدث عن عقل إلهى يضم كافة الماهيات كما فعل من سبقوه، وإنما كان حديثه فى طبيعة النظام الإنسانى عامة، فقدرة العقل جدلية ساعية باستمرار إلى إرساء أنساق هدفها التتمة والتوفيق والترتيب والتنظيم، أليس لكل شخص منا نظامه العقلى الخاص وخبرته الذاتية التى تجول داخله فى مدار شديد الدقة أشبه بمدار النجوم، فلا خروج عن المدار وإلا انهار النظام. إذن كل معرفة، وكل خبرة لها وظيفة محددة، وكل «أعضاء المعرفة والخبرة» لهم أوضاع محددة فى العقل، مثلما لكل فرد منا وضعه المتميز فى الكون، والكل يعمل فى وحدة وتناغم وانسجام رغم التباين القائم بين الجميع، أليس هذا «شمول» وهو أحد المبادئ التى حددها برادلى. أليس للعقل قدرة على تحقيق هذا الشمول فى نسق معرفته، أليس بالعقل كم هائل من المعارف والخبرات المنظمة، بل إن النظام فرض ضرورى ووظيفة ركينة من وظائف العقل. ألسنا نصنف ونوزع ونرتب ونركب، إن عقلنا يشبه «دليل الهاتف» كل ما فيه مرتب وفق نظام دقيق، فلا اسم يشغل مكان اسم آخر ولا رقم برقم غيره وإلا حدث الخلل فى النظام ككل.

هذا ما تهدف له المثالية، التأكيد على الترابط بين الأجزاء وهو ترابط يشيع الانسجام والتناغم والاتساق، وبيان أن ثمة وحدة تجمع التنوع والاختلاف وثمة هدفاً تسعى إليه كافة الموجودات المتباينة. إذن المثالية فى رأينا هى أسلوب حياة ونسق فكرى ولذلك فهى ليست بعيدة عن الواقع والنظام الإنسانى، إنها تجعلنا دائماً نرتبط بالأعم حتى نتمثله فى واقعنا الفعلى وسلوكنا التطبيقى، إننا كثيراً ما نتمثل المبدأ من أجل الدقة والصدق، ونهتدى له من أجل الخير ونقتدى به من أجل التوفيق.

– ٢ –

نظراً لصعوبة بعض الأفكار عند برادلى كان لزاماً علينا تحليل وتفسير المضمون دون سرده، ولذلك ألزمتنا الفكرة أن نتتبعها فى نظامها المتتالى مع تأويلها ومقارنتها بمثيلتها ناقشها برادلى فى موضع آخر من نفس الكتاب أو فى كتب أخرى.

وجدنا أيضاً أن برادلي يكرر أفكاراً وجملاً في كتبه ويظهر هذا واضحاً في فصول كتابه «مقالات في الصدق والحقيقة» لأن الكتاب في أصله مجموعة مقالات نشرت تباعاً في مجلة «العقل»، الأمر الذي ساعد على تكرار بعض الأفكار في مقالات مختلفة، وهذه المقالات هي فصول الكتاب، ولذلك اختلف الكتاب في منهجه وخطته المحكمة عن كتابيه «مبادئ المنطق» و«الظاهر والحقيقة».

– ٣ –

أخيراً أتقدم بالشكر للسادة الذين قدموا لي يد المساعدة في هذا البحث وأخص بالشكر الأستاذ الدكتور أنطوني جرلينج في جامعة لندن الذي نبهني إلى نقاط هامة في فلسفة برادلي عامة. وكذلك أشكر أخواني وطلبتي بالكلية على مناقشتنا في الفكر المثالي واقتناعهم به. وأشكر أيضاً أخي وزميلي الأستاذ الدكتور صلاح عثمان على مناقشاته معي ومساعدته لي في طبع الكتاب.

د/ محمد توفيق

الاسكندرية – لوزان في ٢٣/٨/٢٠٠٣



المحتويات*

الصفحة

---

* علامة الشرطة «-» تشير إلى فقرة جديدة مرقمة فى المتن.

علامة الفصلة «،» تشير إلى أفكار داخل الفقرة الواحدة.

إرشـــادات

١- اختصارات كتب برادلى

AR = Appearance and Reatilty.

CE = Collected Essays.

ETR = Essays on Truth and Reality.

PL = Principles of Logic.

٢-تنبيهات

فى ذكـرنا لكتـاب برادلى ETR فى الهـامش قـمنا بوضع عنوان الفـصل الذى رجـعنا له مع وضع رقم الصـفـحـة حـتـى يكون واضـحـاً أمـام القـارئ مـوضع الفكرة بالتحديد، وهذا مثال:

ETR: Coherence and Contradiction, p. 223.



١ – مقدمة

١- قرر برادلي أن الصدق تعبير مثالي عن النظام السائد في الكون(١)، وتوظيف خاصية «مثالي» ideal هنا هو توظيف منهجي وليس لمجرد الوصف ويعني أن العقل يسهم في تدعيم الصدق حين يفرض نسق المعقولية والتوافق والنظام في الكون من خلال نبذ الخطأ وتعديل الكذب، وبالتالي فثمة استمرار لوجود النموذج المثالي على نحو يضمن له البقاء من خلال التحقق الواقعي في العالم. كذلك تعني خاصية «مثالي» أن شرعية وجود الصدق ترتبط بنموذج قائم في العقل ولا يكتمل وجوده إلا بتحقيق مدروس في الواقع، وهكذا يجعل برادلي العقل يتسيد الطبيعة والوجود بأداء نفس المهمة التي دعى إليها كنط وسار على منوالها فيشته وشلنج وهيجل. كذلك لا يقبل هذا النموذج إلا الأحكام الصادقة أو التي طُبق عليها قرار التعديل والتأهيل، إذ يُعد هذا القرار دليلاً على الاستمرار الأنطولوجي للصدق، فالحكم إن كذب لا يدوم بنفس الحالة على أساس أن فرض التعديل ضرورة كامنة في طبيعته، فلكي يحقق الحكم مثاليته لابد أن يتطهر من الخطأ عن طريق ضرورة التعديل. بيد أن هنالك جانباً عظيم الأهمية يعد بمثابة الركن الركين في تحقيق الصدق وهو ضرورة أن يتحد الصدق بمعيارين أساسيين هما الاتساق Coherence والشمول Comprehensiveness، وعلى هذا النحو يصير الصدق بياناً لما هو صادق وتوثيقاً للسعي الدؤب من أجل تأكيد صحة ما نقرره حينما نعتمد على الفكر

---

١ - ETR: "Coherence and Contradiction", p. 223.

الصحيح، ولهذا يبدو توجه برادلى واضحا نحو ربط الصدق بالمعرفة فى هوية واحدة بهدف أن المعرفة ليست فكراً صادقاً فحسب وإنما هى فكر تحقق فى واقع متناسب معه، فيقول «لا أدعى أن العقل يعمل مستقلاً بمفرده أو يتكلم وهو سجين فى غرفة منعزلة، بل العكس تماماً، إن للعقل وظيفة نوعية هى ضرورة التحقيق فى الواقع وامتلاك حقوق معينة فيه، ومن ثم فأنا أصر على أننا إذا لم نأخذ هذا الفرض بجدية سيكون التأمل مستحيلاً»(٢) . الصدق إذن كما وصفه برادلى يُعد نموذجاً منظماً للأحكام ولتحديد العلاقة بين الفكر والواقع حيث يمثل الواقع مجالاً لتخارج الفكر إلى موضوعه، فإذا كان الاكتفاء بالفكر، ظهر التجريد والأحادية وصار التعامل قائماً مع تصورات كلية فارغة.

---

٢ - ETR: "Coherence and Contradiction", p. 222.

٢ - الصدق والاتساق

٢- توجه برادلى بالصدق إلى نظرية الاتساق، وهو فى هذا التوجه يعتمد على ركيزة أساسية هى أن الاتساق صادق على نحو مطلق ومن ثم يكون معياراً يحتم صدق القضية الشمولية تحت لوائه. وهنا يظهر أمامنا السؤال الآتى: لماذا توجه برادلى إلى نظرية الاتساق فى الصدق؟ والإجابة لها شقان أولهما أن الاتجاه المثالى بصفة عامة يميل إلى نظرية الاتساق(٣)، وثانيهما أن عقلية المثالية المطلقة ومثالية برادلى بوجه خاص تتوجه نحو البنائية الكلية التى تتضمن أجزاء كثيرة منظمة مترابطة متداخلة التأثير فيما بينها بحيث أن حذف جزء يؤثر فى البناء برمته، ولا يُكتفى بعظم الكم المشمول فقط وإنما بالطبيعة الأساسية للبناء نفسه، إذ يُشترط أن تكون هذه الطبيعة صحيحة وصادقة على نحو مطلق، فالقول «الصدق يشمل الاتساق» لا يُقنع برادلى تماماً لأنه قول لا يجعل الصدق معياراً للقضية، فلا نقول القضية متسقة لأنها صادقة بل نقول القضية صادقة لأنها متسقة، ويتم الاتساق أولاً فى نفس القضية أى بين أطرافها، ويتم ثانياً حين تندمج القضية فى نسق محدد يتصف بهذه الصفات: (أ) أنه نسق متسق، (ب) يضم مشتملات كثيرة، (جـ) تتسق مع بعضها البعض، أى أن كل

---

٣ - أنظر:

L.A. Red: Knowledge and Truth, Macmillan, London 1923, pp 14-15.

وأيضاً: H.B. Alexander The Problems of Metaphysics, AMS press, New York, 1967 p 62.

وأيضاً: د/ محمود فهمى زيدان: نظرية المعرفة، فصل الصدق دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩.

جزء يتسق مع جميع الأجزاء الأخرى الداخلة أو المشمولة فى نفس النسق، وطالما تكون القضايا كذلك فهى صادقة والكاذب منها والمتنافر لا يدخل النسق. يقرر برادلى أن هذا النسق هو الحقيقة، أو النموذج المتكامل الذى تملكه الذات المتعقلة، إنه يمثل منظومة شاملة لكل المعانى والأفكار والاعتقادات الصادقة، بناء على هذا كانت نظرية برادلى فى الصدق معتمدة أو قائمة كلية على طبيعة الحقيقة (أو طبيعة النسق) وليس على طبيعة الصدق، على أساس أن الاتساق هو الخاصية الحقة للحقيقة، فأحكامنا وقضايانا تكون صادقة بقدر اتساقها مع الحقيقة(٤). ولذلك كان هنالك تميز بين برادلى وبين أصحاب نظرية الاتساق بصفة عامة، فهم يرون أن الصدق مرهون ومشروط بوجود أحكام أو اعتقادات صادقة، والأحكام هى الأخرى مشروطة بوجود من يقوم بإصدارها، بل إن خاصية الصدق متوقفة على لحظة صدور الحكم، أما برادلى فيرفض هذا الوضع معتبراً الصدق نموذجاً يتقوم بالحقيقة ويقوم عليها، وبذلك يتحدد فى نوع معين من الاتساق وهو ذلك الاتساق الذى يميز النسق ككل لا أن يخص كل حكم فردى.

الصدق إذن ليس صفة منسوبة إلى الحكم عند برادلى إنما هو منسوب للنسق لأنه لو كان منسوباً للحكم فهو - فى رأينا - يؤدى إلى وجود إنعزالية بين الأحكام نفسها حيث تتباعد بصدقها كل على حدة، فإذا قلت (أ) حكم صادق وهو متفق مع (ب) و(جـ)، لكن ماذا بشأن صلته بـ (د) و(هـ) و(و) الخ، فإن نسبت خاصية الصدق

---

٤ - R. Walker: "Bradley's Theory of Truth" An Essay in Appearance versus Reality, ed by Guy Stock, Clarendon press, Oxford, 1998, p 99

للحكم (أ) وحدة كان منعزلاً عن الأحكام (د) (هـ) (و)، لأن كلاً منهم له صدقه الخاص، أما إذا نسبت الصدق للنسق كان الحكم (أ) متوافقاً مع سائر الأحكام المحتواه فيه، بل وهنالك أمر آخر فى غاية الأهمية وهو أن النسق يضم أحكاماً كثيرة صادقة أعظم صفاتها أنها جميعاً تتحد أو تشترك فى نفس الخصال وهى الصدق والاتساق والشمول.

٣- قَبِلَ برادلى الاتساق بوصفه معياراً للصدق فيقرر فى كتابه «مقالات فى الصدق والحقيقة» أن المعيار الذى ينبغى أن يطبق هو المعيار الخاص بالنسق، فأعلن صراحة أن هذا المعيار يعمل على نحو مقنع ومرضى ولا يوجد بديل له يعمل بنفس الكفاءة، ويبين هذا فى قوله «إن المعيار الذى أدافع عنه هو الاتساق»(٥). ومما لا شك فيه أن عقلية برادلى تنزع دائماً إلى ذلك السند المنطقى الذى لا يأتيه الباطل مطلقاً، إنه نسق – مطلق – يضم حقائق دائمة الصدق، وأى حكم أو اعتقاد أو قضية مشروط اندماجه فى هذا النسق بنجاحه فى الاختبار الذى هو معيار الاتساق. ومن الواضح هنا أن برادلى لم يجعل الاتساق تعريفاً للصدق وإنما جعله كما سبق القول معياراً، لأن الاتساق كتعريف يجعل الصدق أحادى المفهوم حيث يكون الاتساق هو منبع الصدق الوحيد، وهذا الأمر غير مؤكد تأكيداً كافياً عند برادلى بدليل أن ثمة جوانب أخرى للصدق تعتبر كمعيار على رأسها نظرية درجات الصدق والحقيقة هذا من جانب، ومن جانب آخر فهناك من الباحثين من أبان أن ثمة مفاهيم أخرى للصدق بجانب الاتساق مبينة على نحو خافت عند برادلى هى نظرية التطابق ونظرية المماثلة(٦).

---

٥ - ETR: On Truth and Coherence, p. 202

٦ - أنظر الجزء رقم ١١.

ويبدو أن رسل قد تأثر بنظرية برادلى عن الاتساق معيار للصدق، فيقول فى كتابه «مشكلات الفلسفة» يمكننا أن نحصل على عون عظيم من نظرية الاتساق إذ أننا نرفضها كتعريف للصدق ونقبلها كمعيار(٧). ولاشك فى قراءة رسل لبرادلى فى هذا الموضوع على أساس أن المقالتين اللتين صرح فيهما برادلى بأن الاتساق معيار قد صدرتا قبل كتاب رسل، فقد نشر برادلى مقاله "On Coherence and Truth" فى مجلة Mind عدد يوليو سنة ١٩٠٩، ونشر مقاله "Coherence and Contradiction" فى مجلة Mind عدد أكتوبر ١٩٠٩ - واعيد نشرهما فى كتاب «مقالات فى الصدق والحقيقة» سنة ١٩١٤ - أما كتاب رسل «مشكلات الفلسفة» فقد صدر سنة ١٩١٢.

٤- اختلف برادلى فى نظريته للاتساق عن أصحاب نظرية الاتساق بصفة عامة، اختلف عن هيجل فى طبيعة الحقيقة وعلاقتها بالصدق، فالحقيقة عند هيجل مطلب عقلى منظم للصدق، يتحقق كلما دعت الحاجة إليه، أما الحقيقة عند برادلى فهى مسلمة نسلم بها لأننا يجب علينا أن نبدأ من نقطة محددة ثابتة، وبالتالى فالحقيقة هى ما نرتكز عليه فى أثناء قيامنا بعملية الحكم.

يختلف برادلى أيضاً عن أصحاب نظرية الاتساق فى أن الحقيقة عنده لا تمثل فقط ربطاً بين الفكر والوجود بل هى مجموع للتجربة الحسية والخبرة والشعور، فالتجربة تنتظم فى خبرة واعية تمكننا من الحكم، ومن ثم ليس للحقيقة عنده أى بعد معرفى نتوصل إليها من خلاله، كذلك ليس لها أى دلالة سيمنتية، وإنما هى وجود

٧- Bertrand Russell: The Problems of Philosophy, Oxford University press, London, 1959 p. 140

ميتافيزيقى نصل إليها عن طريق تجربة شعورية واعية وسامية تفترض أن الحقيقة النهائية صادقة على الدوام ولا تتنافى مع نفسها(٨)، ولذلك لا يمكن التوصل لها عن طريق أحكام أو اعتقادات، لأن الأحكام قد تكون تجريدية، أو قد تكذب، فإذا أردنا الوصول إلى الحقيقة، فإننا نصل عن طريق تجاوز الأحكام إلى تجربة واعية، ولهذا كان برادلى مختلفاً عن أصحاب نظرية الاتساق مثل جرين وبلانشارد الذين رأوا أن الحقيقة نصل إليها عن طريق حكم واعتقاد يحددان الصدق(٩).

٥- ليس الاتساق نظاماً لقضايا وأحكام مرتبة ذهنياً فقط ولكنه نسق منهجى لطبيعة الفكر ومدى تحققه فى الواقع. لقد نظر برادلى للعالم نظرة «فلسفية» كلية، ليست ميتافيزيقية خالصة ولا تجريبية فقط، وإنما هى جمع بين النظرتين ولذلك كان وصفنا لها بأنها «فلسفية». إن هذا العالم يضم موضوعات كثيرة وعقول تدرك هذه الموضوعات، حيث تفرض هذه العقول على العالم النسقية والانتظام حتى يكون مفهوماً، وبالتالى لن يكون العالم محض وجود مستقل عن العقل، وإنما يدركه العقل بطريقتين هما الفهم understanding وتطبيق الاتساق عليه، وبالتالى لابد أن يوجد ثمة توافق بيننا وبين العالم أو بمعنى أدق توافق بين نظام العقل ونظام الكون(١٠).

٦- يضيف برادلى إلى معيار الاتساق فى الصدق معياراً آخر هو الشمول Comprehensiveness، ويقرر فى فصل «الصدق والاتساق» أنه يهدف إلى الجمع

٨- AR: P 12.

٩- Walker: Bradley's Theory of Truth. p 103

١٠- انظر فى هذا الموضوع الكتاب القيم «وحدة المعرفة» للدكتور محمد كامل حسين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

بين المعيارين فى النسق، بل يستحيل فصل الاتساق عن الشمول لأن الفصل يضعف النسق، إذ أن طبيعة هذا النسق الأساسية هى الاتساق والشمول معاً، وبالتالى فإن كونهما على هذا النحو يعنى أنهما يشكلان معيارين للحقيقة(١١) . كذلك يرى برادلى أن المعيارين مطلبان أساسيان يقومان بتزويدنا بالرضى والقناعة العقلية intellectual satisfaction فيقول «طبيعة المعيار فى نهاية الأمر هى كونه معياراً للصدق خاصاً بكل شئ، وهو يمدنا بالقناعة والرضى اللتان تفيان بمطلب طبيعتنا الأساسية»(١٢) . قد نظن أن برادلى فى هذا القول يقترب من الاتجاه البرجماتى، ولكن هنالك فارقاً يؤكد على البعد بينهما، فالبرجماتية ترى أن الأفكار صادقة لكونها ترضى أسلوبنا فى الحياة، أما برادلى فرؤيته هى أن الصدق يُرضى نظامنا العقلى طالما أن هذا الرضى يُعد دافعاً للحصول على أفكار متسقة شاملة عن الكون، وبالتالى لن يوجد معيار للصدق مختلف عن الشمول والاتساق»(١٣) .

لكننا نرى أيضاً أن ثمة فارقاً آخر بين برادلى وبين الفلسفة البرجماتية وهو أن الصدق لدى برادلى تعبير عن نسق لأفكار مرتبطة بالوعى الميتافيزيقى للوجود، فلا اقتناع بصدق قضية ما لأنها ترضينى عملياً أو نفعياً، ولكن المشكلة عند برادلى أكثر عمقاً من ذلك، فالرضى العقلى المسموح لى هو رضى مركب من جوانب مترابطة بشدة، مركب من سلامة استدلالى العقلى، وسلامة الأفكار التى استخدمها، ومن اتفاق

---

١١ - ETR: "Truth and Coherence". "Coherence and Contradiction".

١٢ - ibid: "Coherence and Contradiction". p. 214.

١٣ - T.L.S: Sprigge: James and Bradley. Open Court. Chicago. U S.A.. 1993. p. 353.

وترابط الأفكار مع مبادئ وقواعد أساسية للفكر بصفة عامة، ويؤدى هذا الترابط إلى تكوين نسق ذى بعدين ميتافيزيقى وفيزيقى، وكل ذلك يشكل بناء الحقيقة. إذن فالفهم الدقيق لمعنى الرضى العقلى هو كما يقول برادلى «الصدق بالنسبة لعقلى هو رضى من نوع معين، وهو رضى قادر على مواجهة الآخرين منذ الوهلة الأولى، وهذا الصدق يتميز عن جوانب الصدق الأخرى، والفلسفة كما أفهمها تساعد على تلبية هذه الحاجة وطلب الصدق(١٤).

نستنتج مما سبق أن الصدق بالمعنى البرجماتى يختلف عن الصدق بالمفهوم الميتافيزيقى، فهذا الأخير يختص بماهية الحقيقة النهائية، وهذه الحقيقة البرادلية ليست أحادية التوجه كما هو الحال عند البرجماتية، وإنما هى حيادية فى ثنائية التوجه، فالعالم الخارجى فقط هو هدف البرجماتية، بينما الحقيقة عند برادلى هى جمع بين الفكر والواقع، وإن كانت الذات المثالية المفكرة هى أساس من أسس تكوين الحقيقة، وكما سوف نرى أن برادلى يؤكد على أن الاتساق لا يشمل أفكاراً فقط وإنما ينطبق أيضا على العالم الموضوعى الحسى. لكن لا يعنى تطبيق الاتساق على العالم الموضوعى أن ثمة بُغية برجماتية وإنما لازالت نظرة برادلى للعالم الموضوعى نظرة مشبعة بالميتافيزيقا، لكنه استعان به ليكمل النسق، والدليل على ذلك أنه لم يستخدم نظرية التطابق فى الصدق لتعينه على إكمال مذهبه الفلسفى، فقد جعل جانب النفع والفائدة مقصوراً فقط على القناعة والرضى العقلى للصدق المشفوع بالاتساق والشمول، وبناء على هذه النظرة يتقرر موقف برادلى فى جانبين: أولهما أن الأفكار

١٤- ETR: Coherence and Contradiction. p. 220.

الصادقة لا نتوصل إليها عن طريق التطابق، وثانيهما يعتمد الصدق على الرضى والقناعة بوصفهما جانباً عملياً يخضع لحكم التجربة الحسية، وهذا المفهوم يعلن تماماً أن الميتافيزيقا لازالت هى الباحثة عن الصدق، بل عن نوع عميق للصدق يعتمد على معيارى الاتساق والشمول بوصفهما كافيين لكل أغراضنا.

٣ - الصدق والحقيقة(١)

٧- يقوم برادلى بتحديد نموذج مثالى تتوجه له الأفكار لتأكيد معناها وصدقها، وهذا المعنى الحقيقى والصدق يتواجدان على الدوام فى المطلق بوصفه المجال المناسب الوحيد والركيزة التى نستند إليها فى تقديرنا للحكم الصادق ولذلك يضم المطلق كثرة متنوعة لأصناف الوجود يذوب فيما بينها الاختلاف والتباين فتندمج فى وحدة تقرر الاتساق والشمول كعنصرين مقومين لتلك الكثرة، فمعطيات العالم الخارجى متنوعة ومتكثرة ولكنها تشكل خبرتى، ولكن لا يمكن أن تقوم معرفة على هذا الكم المتناثر المختلف من تلك المعطيات، ولذلك لابد من فرض الترتيب والاتساق حتى تكون المعرفة ممكنة، وهكذا يتواجد أمامنا الشمول والاتساق ليس فقط كمعيارين وانما بوصفهما أيضاً خصائص أساسية للحقيقة والمطلق. وبناء على هذا لا توجد فى الحقيقة أجزاء منفصلة أو منعزلة، وهنا يدعونا برادلى إلى ضرورة التوقف عن تصور الشئ منفصلاً أو فى حالة انعزال(١٥)، وبالتالى تتوافق الأجزاء بالضرورة فى النسق الشامل مع بقية الأجزاء. إن من طبيعة الحقيقة الشمول والاتساق، فالشمول يعنى احتواء أجزاء كثيرة صادقة، فإذا نظرنا إلى أى جزء من أجزائها لوجدناه يحمل نفس هاتين الخاصيتين، ولكن إذا حذفنا جزءاً منها فلن تكون حقيقة لأنها خضعت للفقدان والانفصال، فالحقيقة الحقة كما يقول برادلى لا يمكن لها أن تتجزأ إلى قطع صغيرة(١٦).

١٥- ETR: Coherence and Contradiction, p. 241

١٦- ETR: On Truth and Copying, p. 119

٨- يرفض برادلى الخاصية التجريدية للحقيقة، فيقرر أنها كلّ متسق يجمع بين الواقعية المعقولة والميتافيزيقا المحايدة غير المتطرفة، ولقد بدا هذا واضحاً لديه فى رفضه لفكرة الأشياء فى ذاتها ورأى أنها فكرة عاجزة عن إقامة بناء متعال للحقيقة، وبالتالى لا حاجة لنا بها لأنها تجريد فارغ لا يقدم معرفة، ويبرر برادلى هذه النظرة بقوله «إن لدينا فكرة صحيحة عن الحقيقة بحيث لا تترك أى مساحة لمثل هذه الموجودات المجهولة(١٧) . كذلك جعل برادلى الحقيقة فكرة ميتافيزيقية غير خالصة، وهذا قول فريد يختلف عن الفهم السائد للاتجاه المثالى بأنه مذهب يسعى للتجريد الخالص، ولكن الأمر يختلف تماماً لديه، فيقرر فى كتابه «مقالات فى الصدق والحقيقة» أن الأحكام لا يكفى لها لكى تصدق أن تتسق مع أحكام أخرى متسقة، وإنما لابد أن تتسق مع التجربة الحسية التى أحصل من خلالها على معطيات العالم الخارجى، وهذا معناه ضرورة أن يشمل النسق أحكاماً قائمة على تركيب عقلى وناتجة عن ترتيب المدركات الحسية والخبرة، يقول برادلى «لابد أن أبدأ بذكر الأشياء التى لا أعتقد فيها، فلا أعتقد فى معرفة مستقلة عن الشعور feeling والإحساس sensation، فأنا على يقين تماماً أننا نعتمد عليهما بوصفهما مادة معرفتنا. كذلك أعتقد فى وقائع الإدراك الحسى perception، وأنا مقتنع تماماً أننا لا نستطيع أن نجعل هذه الوقائع مستقلة عنا كلية. إن وقائع الإدراك الحسى تمثل جوانب غير عقلية، ولكنها مرتبة بدقة، وأنا لا أعتقد أننا منفصلين عن هذه المعطيات اللاعقلية non rational data»(١٨).

١٧- AR: p. 113- 114.

١٨- ETR: On Truth and Coherence. p. 203.

يتضح مما سبق أن برادلى يقرر أن النسق لا يشغل جزءاً عقلياً خالصاً معزولاً عن التجربة الحسية والعالم الخارجى، بل ينشأ النسق من تجربة عميقة المعنى مستمدة من العالم الموضوعى ويظل مستمراً فى البقاء. وهذا الاستمرار راجع - فى رأينا - إلى جعل النسق معياراً للصدق لاختبار وقائع التجربة الحسية، بوصف التجربة الحسية نفسها مادة للتجديد والبقاء، تماماً مثلما هو معيار للأفكار والأحكام والقضايا، فالوقائع تتحقق بسبب قدرتى على التعامل مع الجديد منها والمستمر فى جدته، من أجل إيجاد عالمى الرحب الأكثر انسجاماً وتوافقاً، وكلما صار بدائى شاملاً وأكثر رحابه كلما زيدت وقائعه ودخلت فيه، وكذلك، إذا ما تأكد ثباته تأكيداً، أمكننا الوصول إلى كل منتظم شامل، ويكون يقيننا بشأنه يقيناً مطلقاً(١٩).

بهذا لا يكتفى برادلى أن يتقوم النسق كبناء مقنع فى حوزة الفهم الميتافيزيقى فقط ولكنه يرى أن الفكر فى معرفته بالعالم الموضوعى يقرر أن هذا العالم - أى العالم الحسى المدرك - هو أحد العوالم التى يجب علينا أن نتعامل معها حيث نستمد منه نظاماً يفيد فى بناء النسق المتكامل، وبذلك لا ينطبق الاتساق على الحقيقة الفكرية وحدها وإنما يقبل العالم الخارجى بوصفه مجال تحقيق هذه الحقيقة. وهنا تتضح لنا أن هنالك علاقة رباعية الحدود تقوم بين الصدق والاتساق والحقيقة والعالم الخارجى، ونبدأ بمناقشة الصدق فى اتساق العالم الخارجى.

٩- يقول برادلى «هدفى هو الحصول على عالم شامل متسق بقدر الإمكان ومن أجل هذا الهدف لا التمس العون فقط من الفكر الخالص وإنما من مادة الحس»(٢٠)،

١٩- ibid: p 211.

٢٠- ibid: On Truth and Coherence. p. 210

كذلك يقول أيضاً في فصل آخر «أنا لا أفترض أن الذهن يعمل بمفرده، يتكلم وهو سجين في غرفة معزولة، بل العكس هو الصحيح، إننا لدينا وظيفة نوعية هي التحقيق في الواقع، وأنا أصر على أخذ هذا الرأى بجدية، وإلا كان التفكير مستحيلاً»(٢١). ويقول أيضاً في فصل «الصدق والنسخ» «أي حقيقة تتواجد خارج الخبرة الحسية والمعرفة هي أمر يستبعده عقلي تماماً»(٢٢). ويقرر برادلي أن التماس العون من عالم التجربة الحسية بجانب عالم الفكر له سببان أولهما: أنه لا يمكن إنكار وجود المادة الخام للمعرفة لأنها قديمة قدم الوجود وثانيهما: أن هذه المادة تتزايد على نحو مستمر، وهذان السببان يدفعانه لكي يعتمد على الادراك الحسي(٢٣). وليسا السببان -في رأينا- في حيدة عن القانون الطبيعي، إذ يبدو عند برادلي ثمة علاقة قائمة بين المادة matter كموجود تجريبي مباشر جزئي وبينها كموجود خالص pure being مطلق بالمعنى الهيجلي، والاثنان يتواجدان في بناء مادة المعرفة وهذا الاتحاد أزلي أبدي، ومن هنا جاء وصف برادلي لها بأنها قديمة. أما الزيادة فتتحقق في اتساع مساحة المعرفة، فأينما تذهب أو تتحرك فهذه المادة (موضوع المعرفة) قائمة أمامك، بل لا تقوم هي أيضاً إلا بوجودنا وإدراكنا. يمكن القول أيضا إن هذه المادة تتحقق في جانبين أحدهما طبيعي (المادة في الكون لا تفنى ولا تأتى من عدم) والآخر ميتافيزيقي (المادة بوصفها وجوداً خالصاً)، أما الذى يجمع بين الجانبين فهو العقل.

٢١- ibid: Truth and Contradication. p. 222.

٢٢- ibid: On Truth and Copying. p. 118.

٢٣- ibid: On Truth and Coherence. p. 210.

كذلك أكد برادلى على أننا نعمل من خلال ذلك العالم الذى يستمر فى علاقة مع جسمى اليقظ الشاعر(٢٤). هذا العالم وإن كان جزء بسيط منه هو الذى يستمر وينتهى نتيجة اهتمامات عملية، إلا أنه لابد أن يندمج فى الحقيقة، بمعنى أن العالم الذى نشعر به ونحسه وإن كان منقسماً إلى مجموعة عوالم متباينة كعالم الصدق والعلم والواجب والدين، وعالم الخيال والشعر والرواية، وكذلك الأمل والرغبة والحلم، كل هذا يعد عناصر أساسية فى مجموع الحقيقة(٢٥)، وفى تكوين ما أطلق عليه برادلى لفظ «عالمى»، فيقرر أن ثمة صدق من نوع معين فى هذه العوالم(٢٦)، ويجب علينا أن نعرفه ولا ننكره حتى لو بدا الصدق مختلفاً من جانب إلى آخر، لكنا يجب أن نقبل هذا الصدق وهذه العوالم بوصفها أنساقاً متسقة وفقاً لطبيعتها. وبرغم تنوع هذه العوالم إلا أنها مجمعة فى نسق نهائى يربط بين معظم الأطراف المتباينة، كذلك يجمع بينها نوع من الصدق يساعد على الاتحاد والترابط، كل هذا يشكل عالمنا الخاص بنا أو الخاص بكل فرد منا وهو يعتبر عالماً حقيقياً غنياً فى مضمونه عن سائر العوالم الجزئية حتى عن العالم التجريبى نفسه.

١٠- يقول برادلى «كل منا له عالم يطلق عليه عالمه الحقيقى، هذا العالم يقوم فى المكان والزمن ولكنه لا يأتى عن طريق أحكام الحس فقط، لأن الخاصية الظاهرة للأحكام أنها لابد أن تنتمى للنظام الحقيقى، أما إذا لم يتحقق هذا العالم الحقيقى فثمة أحكام دخلت فى الخطأ وستكون كذلك ما لم نقم بتعديلها حتى تكون مقبولة»(٢٧).

٢٤- ibid: On Floating Ideas and the Imaginary. p. 30.

٢٥- ibid: p. 31.

٢٦- أعتقد المقصود هنا من لفظ (عالم) هو (جانب) حين نقول مثلا (جانب) من جوانب العالم.

٢٧- ibid: On Truth and Coherence. p. 208

والسؤال الآن هو كيف ينتظم عالمى؟.

يقرر برادلى أنه يقبل معطيات العالم الخارجى المتمثلة فى هيئة «وقائع» facts، وتظهر هذه الوقائع فى جانبين هما: الإدراك perception والذاكرة memory، ويرى برادلى أن هذه الوقائع ليست تجريبية خالصة، وإن كانت مستمدة من التجربة، فلدينا إلى جانب المعطى الحسى يوجد جانب التفسير interpretation وجانب البناء Construction، فلا توجد واقعة مقدسة، فكل الوقائع تحتاج تأويلاً، وهذا يسمح بإمكانية الخطأ، ولا توجد واقعة غير قابلة للتعديل كما لا توجد واقعة تدوم فى ثباتها(٢٨). وهنا يظهر تساؤل جديد هو: هل يمكن أن توجد وقائع وأحكام أقل عرضة للخطأ؟ وإن وجدت أحكام ووقائع خطئة هل يمكن إعادة تصحيحها وتأهيلها لتكون صادقة؟.

يمكننا أن نلحظ هنا تلك السمة القلقة عند برادلى بشأن العالم الخارجى، وقد أبان ذلك فى كتابه «الظاهر والحقيقة» ورأى أن العالم المنسوب إليه قلقنا هو عالم الظاهر، وقد حدده بأنه ينطبق على الإدراك الحسى ويرتبط بالخطأ وسوء الإدراك المتعلقين بالواقع(٢٩)، وكلما وقع الفكر فى تناقض وراح يدرك الجزء بدلاً من الكل والكثرة والتنافر بدلاً من الوحدة والاتساق(٣٠). وبناء على هذا يتساءل: هل يمكن أن يوجد صدق بشأن الإدراك الحسى بحيث لا يمكن أن يتطرق إليه الشك أو الفشل؟ إن قبولنا لعالم الإدراكات الحسية هو قبول جوهرى لا يمكن رفضه على أساس أن هذا العالم

٢٨- ibid: p. 204.
٢٩- AR: p. 429.
٣٠- ibid: p. 166.

يشكل مادة معارفنا، وبالتالى نحتفظ به ونؤكد عليه. ولكن ماذا لو أن عالمى الحسى أتاه ما يخل نظامه بإفتراض استحالة صدق جميع وقائع الإدراك الحسى وأحكام الذاكرة؟ بيد أن هنالك فرض آخر مقابل هو استحالة أن أدخل فى خبرتى ومعرفتى ما لا يتسق معها، أو أضع بها واقعة ليست فى مكانها الصحيح، وبناء عليه لابد أن تستند معرفتى إلى ما أطلق عليه برادلى اسم البناء الفوقى super structure، هذا البناء يتصف بالثبات والرسوخ والتأسيس على دعائم نظام خبرتى ومعرفتى الصادقتين، ويمكن الإضافة إلى هذا النظام دون أن يحدث تغيير فى طبيعته الأساسية، فطالما الدعائم موجودة فالبناء قائم وباق، وإذا لم تتواجد الدعائم ينهار البناء تماماً(٣١). إن وقائع الإدراك الحسى جامدة ليس بمقدورها أن تقيم بناءً فوقياً، ولذلك كان حرى ببرادلى أن يفترض هذا البناء بوصفه بناء مدعوماً من الفكر والحس معاً، وإن كانا الجانبان يدخلان فى الميتافيزيقا حتى لا ينتسب برادلى إلى التجريبيين.

١١- يتضمن البناء الفوقى نسيجاً من الوقائع المدعومة بالفكر، وحتى تكون هذه الوقائع صادقة لابد لها أن تشترك فى نظام خبرتى حيث تتسق فيها مع جميع أحكامها وبالتالى تشكل أحكام الإدراك الحسى نسقاً داخل خبرتى يتضمن وقائع صادقة، كذلك الحال مع الوقائع الخطأ، فهى تنتظم أيضاً داخل بنائى وخبرتى ولكن بوصفها وقائع خطئة. نستنتج من هذا أن هنالك وقائع صادقة ودائمة الصدق وبالتالى لا يمكن الاستغناء عنها ولذا تظل باقية كعضو من أعضاء عالمى المعروف، وبدون هذه الوقائع

٣١- ETR: On Truth and Coherence. p. 204.

الصادقة لن أعرف كيف تنتظم معرفتى(٣٢). ولكن برغم هذه الركيزة الأساسية الصادقة إلا أن برادلى يهاجم ما أطلق عليه الواقعة المطلقة الضرورية The Absolute indispensable fact بوصفها مصدر الكذب، وفى رأينا - أن ثمة سببين لهذا الهجوم: السبب الأول منسوب إلى تلك الطبيعة المطلقة للحقيقة، حيث تشمل خاصية الإطلاق بدورها كل ما تضمه الحقيقة، فتنطبق على الصدق والخير والجمال، وجميعها جوانب تحوز بما لا يدع مجالاً للشك على خاصية الإطلاق، وبالتالى يتوقف التغير والتحول ويتأكد الثبات والاستمرار، فضلاً عن ترابط أجزاء الحقيقة ترابطاً يلغى التفرد والانفصال ويبقى التميز، فكل موجود أو جزء له صفاته الخاصة التى تميزه ككيان متفرد بوجوده، وله أيضا صفاته العامة التى يشترك بها مع جميع الأعضاء كالاتساق والترابط والوحدة والصدق. أما السبب الثانى فيتقرر فيه أنه لا يجوز أن ينطبق الإطلاق - بالمعنى السابق - على وقائع العالم المحسوس، فلا يصح وصف الواقعة بأنها مطلقة وذلك بسبب أن طبيعتها جزئية منعزلة وتغيرها دائم متلاحق، وبناء على هذا يرفض برادلى الواقعة المطلقة ويؤكد على هذا بقوله «الواقعة المطلقة الضرورية هى أداة النظرية الكاذبة، وهى لا يمكن أن تكون حقيقية ومن ثم تجلب الفوضى فى عالمى»(٣٣).

نستنتج مما سبق ما يلى:

أ- يرفض برادلى حصول الواقعة الجزئية على خاصية الإطلاق فى نفس مجالها الظاهرى.

٣٢- ibid: p. 211

٣٣- ibid

ب- طبيعة الوقائع التغير والتبدل وبالتالى فرض نظام الثبات على العالم أمر غير مقبول تماماً.

جـ- الثبات والإطلاق من خصائص عالم الحقيقة.

ويتأكد عدم وجود وقائع مطلقة فى قول برادلى «لا يشترط أن يكون الأساس المستخدم فى البداية هو نفسه المستخدم فى النهاية... فلا توجد وقائع فردية تسمى واقعة أساسية على نحو مطلق»(٣٤). ويتناول برادلى نفس الموضوع فى «مبادئ المنطق» تناولاً مختلفاً، فيرى أن الوقائع المطلقة مرفوضة تماماً ولكن هنالك صدق مطلق وهو خاص بالكون الكامل بوصفه كلاً شاملاً، كذلك يوجد الصدق النسبى الخاص بوقائع العالم المحسوس(٣٥). لكن بالرغم من أن الصدق المطلق يختلف تماماً عن الصدق النسبى إلا أنه لا يوجد انفصال تام بينهما على أساس أن الثانى يسعى باستمرار ليدخل فى حوزة الأول. لكننا نرى أنه سواء كان ثمة انفصال أو ارتباط بين النوعين إلا أنه يجب علينا ألا نعالج المشكلة من زاوية تجريبية بحتة، إذ لابد أن نضع فى الاعتبار، أن برادلى يعالج الموضوع من زاوية ميتافيزيقية، وينتهج نفس المنهج الهيجلى وهو «محاولة تعقيل العالم»، فيقرر عدم وجود خط فاصل بين الصدق المطلق والصدق النسبى، فإذا أمكن أن تكون المعرفة تامة، فإن الفارق سوف يختفى، ففى أى نسق كامل لا يوجد أى موضع للاختلاف والانفصال، لأن أحد الحدين سوف يندمج فى طبيعة عليا وكل صدق يصبح تطوراً متواصلاً متجهاً نحو حياة واحدة غير منقسمة

٣٤- ibid.

٣٥- PL: p. 674.

تجمع بين الصدق المطلق والصدق النسبى، لكننا لو لم نقم هذا العالم فسوف يكون لدينا صدق نسبى ونأمل أن يكون لدينا الصدق المطلق(٣٦) . غير أن برادلى لم يخفت أمله فى تحقيق هذا النظام، بل حقق هذا العالم وخطط حدوده فى كتابه «الظاهر والحقيقة»(٣٧) فأعلن فيه أن عالم الظاهر ليس منفصلاً عن عالم الحقيقة وكل منهما يشير إلى الآخر، فالظواهر المختلفة تتخلص من صفة الاختلاف حين تلتحم بالمطلق، فهو كل متحد تندمج فيه موضوعاته فى وحدة تامة حيث تختفى سمة التنوع الخارجى(٣٨) . أما فى «مقالات فى الصدق والحقيقة» فيقرر أن «تبرير الوقائع والتأكد من صحتها يتم بقدر ما تكون حقيقية، فأكون قادراً على التعامل مع الوقائع الجديدة بطريقة أفضل، وجعل عالمى أكثر رحابة وأشد توافقاً، وكلما زاد بنائى علواً واتساقاً وشمولاً، كلما ازدادت وقائعه واندمجت فيه كل وقائع جزئية أو مجموعة وقائع، وبهذا الشمول يصبح البناء أكثر رسوخاً وتأكيداً، وحين نصل إلى هذا النظام الكلى الشامل يصير يقيننا مطلقاً»(٣٩) .

١٢- صرح برادلى إذن أن الاتساق يسود عالمنا الواقعى أيضاً- مثلما يكون طبيعة أساسية للفكر- ويظهر هذا فى انتظام وقائع هذا العالم وبالتالى يتأكد صدق هذه الوقائع، ويتحقق هذا عنده كما يلى:

٣٦- ibid: p. 675.

٣٧- نشر «مبادئ المنطق» ط١ سنة ١٨٨٣، ونشر «الظاهر والحقيقة» ط١ عام ١٨٩٣، وتلا ذلك أبحاثه المنشورة فى كتابه «مقالات فى الصدق والحقيقة عام ١٩١٤ .

٣٨- A.R: p. 159.

٣٩- ETR: On Truth and Coherence. p. 211

(١٢-١) ينسب برادلى صدق الواقعة الملاحظة إلى الشخص الذى يقوم بإدراكها فى ظروف وأحوال معينة، وهذا يعنى أن ثمة نظاماً ذهنياً ضرورياً لدى الشخص يعد قاعدة أساسية يبدأ منها(٤٠)، ويستند هذا القول إلى قضية رئيسية أعلنها برادلى فى كتابه «الظاهر والحقيقة» فى بداية الفصل الثالث عشر المسمى «الطبيعة العامة للحقيقة»(٤١) فرأى أن المطلق نسق واحد مضمونه تجربة واعية تمثل خبرة فردية individual experience(٤٢)، بيد أن هذه الخبرة لا تعنى عنصراً تجريبياً خالصاً كما هو الحال عند التجريبيين، وإنما يكسبها برادلى معنى ميتافيزيقياً، فيقرر أن الحقيقة نسق يرضى وجودنا ككل ويستوعبه، كما يضم احتياجاتنا الأساسية المتوجهة للصدق والخير والجمال والحياة، ويتم بلوغ هذا الكمال من خلال خبرة فردية تشمل عناصر عامة كالإحساس والمشاعر والتفكير والإرادة، وهى جوانب لابد أن تتحد وتندمج فى تجربة واحدة شاملة(٤٣). نستنتج إذن مما سبق أن برادلى يمثل صورة متطورة للمثالية حيث يؤكد على أهم عناصرها وهو رد الوجود إلى الذات المتعقلة، ولقد سبقه كنط فى هذا الأمر حين رد عملية المعرفة إلى العقل بوصفه النظام الكلى الذى ينتج المقولات، كذلك رد فيشته انتظام العالم ومعرفته إلى الأنا، وجعل شلنج الأولوية للأنا فى الفلسفة المتعالية، أما هيجل فالوجود لديه مبنى بالعقل، وبذلك يتساوى «العقل النظرى» و«الأنا» و«العقل» مع مضمون الحقيقة عند برادلى وهى الخبرة الإنسانية.

٤٠- ibid: p. 212.

٤١- The Gemeral Nature of Reality.

٤٢- AR: p. 129.

٤٣- ibid: p. 140.

(١٢-٢)- يجب أن تتفق الواقعة المدركة مع عالمنا الخاص ونظام خبرتنا، فإذا تم ذلك بنجاح انتظمت الواقعة واتسقت، وصدقت، أما إذا تعارضت مع هذا العالم كذبت ورفضت واستبدل بها واقعة صحيحة، بيد أن الواقعة الأولى ستمثل نموذجاً للخطأ، وهو نموذج ذهني، ولكن لا يمكن استبعاده، فالخطأ باق، غير أن الوقائع لا تبقى على حالة الخطأ لأن برادلى قد أقر بإمكانية التعديل والتأهيل فيقول «نحن ملتزمون بإعادة ترتيب عالمنا باستمرار سواء كان الترتيب ضئيلاً أو شاملاً، ربما تُرفض بعض الوقائع، لكن الأمر الهام هنا هو بشأن كيفية تحديد نظامنا على نحو صحيح أو فاسد»(٤٤).

١٣- يطبق برادلى أيضا الاتساق على وقائع الذاكرة، ويطلق عليها «الواقعة المتذكرة» - بفتح الكاف - a remmbered fact، فيرى أن يقين الواقعة المتذكرة لا ينسب إلى العالم المحسوس بقدر ما ينسب إلى ما أطلق عليه مبدأ الثقة فى الذاكرة مستبعداً أى أسباب للتناقض، ويقوم بتطبيق هذا المبدأ على وقائع التاريخ، فمثلا الواقعة التاريخية «شنق لويس الخامس عشر» تعتبر واقعة صحيحة ومن ثم يقينية من الناحية العملية لأن فرض خطئها يسبب فوضى واضطراباً فى عالمى الواقعى. يؤكد برادلى على هذا بقوله «أخذ الذاكرة بوصفها مبدأ جديراً بالثقة بصفة عامة يمنع أى مجال للشك فيها، فضلا عن الاستعانة بتقدير أشخاص آخرين لهم نفس رؤيتى للعالم بوصفه عالماً صحيحاً وصادقة وقائعه ومعارفه، هذه الجوانب تساعدنى فى إقامة عالم منظم خاص»(٤٥).

٤٤- ETR: On Truth and Coherence. p. 119.

٤٥- ibid: p. 213.

١٤- السؤال الآن هو: ماذا تكون بنية العالم الحقيقى عند برادلى؟ والإجابة عنه تبدأ كما بدأ هو بتجنب الشك الديكارتى لأن مهمة فيلسوفنا ليست إثبات وجود العالم بل إعطاء بيان عن طبيعة انتظام واتساق وصدق العالم وما يشتمل من موضوعات كثيرة ومتنوعة سواء عرفنا هذا العالم على حاله أو لم نعرفه لأنه سيظل يحمل صفات أخرى قد لا يتاح لنا معرفتها. ليس العالم الحقيقى هو العالم الحسى، بل هذا العالم الأخير هو جزء منه يمدنا بمعرفة ما لكنا - كما يرى برادلى - لا نشك فيه حتى لو شابه بعض الخطأ، فشهادة الآخرين وطبيعة الإدراك الحسى وملكة وقائع الذاكرة جميعها تعلن أن هذا العالم برغم كونه حسياً إلا أنه منظماً، فأساس الحق فيه هو مساهمة ناجحة ومعرفة صادقة نحصل عليها منه حتى لو كانت جزئية، ولذلك فحدود قدرتى ومعرفتى لهذا العالم محدودة، فلا أعرف كل ما يحدث فى هذه اللحظة بكل التفاصيل، كذلك لا أضيف إليه أكثر مما يحتمل، ولا أخلق به مادة أولية جديدة مقابلة لما فيه بلا قيد ولا شرط، بل إن خلق ما هو مماثل للعالم ليس من طبيعة قدرتى. إذن أنا محدود فى العالم الحسى بتلك المادة المعطاة لنا بطريقة قسرية، ونحن مجبرون على إدراكها ومعرفتها، لكن برغم هذا فإن تلك الجبرية المعرفية القائمة فى كل عناصر هذا العالم لا تلغى قدرتى على فرض النظام والاتساق عليه.

لكن العالم الحقيقى ليس هو عالم التجربة الحسية، إنه عالم أكثر رحابة واتساعاً، فوجود الصفات الحقيقية والمعانى الصادقة والأحكام القويمة لا ينسب إلى عالم فيزيقى بقدر انتسابه إلى كون حقيقى مطلق شامل يضم جميع الصفات والأفكار والأحكام والمعانى الصحيحة الصادقة، فكل شئ فى هذا الكون له وضعه المحدد حتى الحصان المجنح والعنقاء وآلة الزمن، لأن فكرة برادلى عن هذا الكون الحقيقى The real Universe هى أنه أكثر امتداداً ورحابة من العالم الفيزيقى، ولذلك لا تخضع

الحقيقة النهائية للأحداث المكانية والزمانية الواقعة في العالم الفيزيقي(٤٦). إذن العالم الحقيقي هو عالم غني في تفصيلاته يقوم الصدق بترتيب معطياته معتمداً على مبدأ الاتساق الذي يسود كل جوانبه، فالتجربة الحسية ووجود الآخرين ومعطيات الإدراك الحسي وكذلك العوالم الجزئية كالخيال والشعر والأحلام والرغبات إلخ تشكل جانباً منه، ولكن وراء كل هذا توجد حقيقة مطلقة موجودة بذاتها في هيئة حقائق صادقة ونحن في حاجة إليها دائماً(٤٧).

كذلك يتوجه برادلي إلى الإعلاء من قدر «الذاتية» التي تفهم وتعي عالم الحقيقة النهائية، إذ يتجلى هذا العالم أمام الذات ويكشف عن نفسه لها، فالأولوية لا تمنح للشيئ المعطي – حتى لو كان منظماً – ولكن تمنح للذات الشخصية الحقيقية – أو كما يقول برادلي لذاتي الشخصية الحقيقية my real personal self التي تقوم بالتنظيم والفهم وبالتالي لا تنفصل بصدقها عن الكون(٤٨). أما الاعتماد على العالم الحسي وحده – بما فيه من معرفة صحيحة – فإنه يؤدي إلى انعزال الفرد ومجابهته لوجود غريب عنه، ولذلك يقرر برادلي أن الحقيقة المطلقة تعمل من خلالي، وهي تتوحد ذاتياً وتقف ورائي سنداً دائماً، أما العالم الذي يتصدى لي فهو في أساسه واحد من حيث القوة المقابلة للحقيقة، لكن رفضه هو محض الخطأ(٤٩). وبذلك يدعو برادلي إلى

٤٦- Ph. Ferreira: Bradley and the Structure of Knowledge, state University of New York, 1999, p. 270, note 29.

٤٧- ETR: On Truth and Coherence, p. 215.

٤٨- ibid: On Floating Ideas, p. 29.

٤٩- ibid.

نفس الحل القديم وهو الحل الذى دعمه كنط وأيده فيشته وشلنج وهيجل، ولذلك لم يحد برادلى عن الهـدف الأساسى الذى إنتـهـجـه زمـلاؤه ، فـدعى إلى اتحـاد الظاهر مع الحقيقة وهو بذلك يطبق قول هيجل «لا يوجد شئ وراء الستار مختلف عما هو أمامه» وما يوجد فى «الأمام» هو المطلق الذى يكون فى وحدة دائمة مع الشخص العارف.

٤ – الصدق والحقيقة(٢)

١٥- هناك ترابط بين الصدق والحقيقة من جانب وبين الصدق والمعرفة من جانب آخر، فالحقيقة تكشف عن نفسها من خلال محتوياتها، حيث أن السمة الأساسية لهذه المحتويات هى أنها متسقة، وطالما هى كذلك فهى صادقة. إذن كل ما يتوجه للحقيقة لابد أن يكون صادقا(٥٠)، بل إن الغاية الرئيسية للصدق هى بيان سمة الحقيقة التى يقام عليها الصدق(٥١)، أو أن يكون حقيقياً، أو يمتلك الحقيقة فى نموذج مثالى، وهذا معناه أن يكون الصدق كاملا(٥٢). كذلك تتحول العلاقة إلى رابطة أو صلة تجمع بين الصدق والحقيقة لأن العلاقة تنتمى لعالم الظاهر فضلاً عن أنها عند برادلى أداة للفصل وليس للربط، ولذلك فإن ما يربط بينهما هو توحد ماهوى يتواجد بين كيانين متوافقين متماثلين متوحدين فى هوية واحدة، فصدق بلا حقيقة لن يكون صدقاً، وحقيقة بلا صدق لن تكون حقيقة(٥٣)، فالأول لن يكون صدقاً لأنه لا يجد مَنْ يدعمه، والثانى لن يكون حقيقة لأن الحقيقة خالية من الكذب والنقص. إن الحقيقة وحدة تعلو على تجربتنا المباشرة وعلى العلاقات والفكر والإرادة لأنها تشمل كل هذه الجوانب، وبالتالى ليست هذه الحقيقة تجريبية، إنما هى عقلية أو مثالية، حيث يكون الصدق بدوره نموذجاً مثالياً، لكنهما ليسا أفكاراً خالصة مجردة لأنهما لا ينكران العالم المدرك حسياً.

٥٠- ETR: Some Aspects of Truth, p. 314.

٥١- AR: p. 145.

٥٢- op. cit: On Truth and Copying, p. 114.

٥٣- ibid: Some Aspects, p. 343.

تتجاوز الحقيقة أيضاً أى تطور، لأن ما يتطور هو ما ليس كاملاً، بينما الحقيقة حائزة على الكمال على نحو مطلق، كما تتضمن صيرورة تعنى الغنى المستمر لمحتواها المثالى، وخير دليل على هذا المحتوى هو خبرتنا الخاصة التى هى فى الأساس نظام عقلى تقوم الحقيقة بإنمائه وفرض الصدق عليه بإنتاجها الدائم لأفكار واستخدامها بوصفها خبرة متكاملة تجمع بين الإدراكات العليا والفهم والحدس وإدراك الجمال. ويقرر برادلى أن الحقيقة على هذا النحو توجد فى نظامين، فهى موجودة على مستوى نظامنا الإنسانى فى هيئة خبرة متكاملة إلى حد ما من منظور جزئى لأننا موجودات متناهية، كذلك هى موجودة أيضاً كحقيقة مطلقة فى النظام الكونى القائم فى كل مكان وزمان وهو نظام خارج قدرتنا المحدودة، ولذلك فخبرتنا بوصفها نوعاً من الحقيقة تتسم بالطابع المثالى، ولكنها ليست مطلقة وإنما تظل لدينا بمثابة فاعلية ونشاط نظرى مبرر ومؤكد.

١٦ - الصلة بين الصدق والحقيقة ليست من الخارج وإنما هى ترابط وثيق من الداخل ولذلك لا مجال لتباين الصدق وهو متحد مع الحقيقة، بل يمكن اعتباره أنه الحقيقة بالفعل، وبتوجهه لها يقضى على أى إمكانية للتناقض والتباين. لكن قد يختلف الصدق عن الحقيقة بسبب عيب فيه، حيث تتحدد صلة سالبة مزدوجة بينه وبين الحقيقة، لكنه لا يديم الاختلاف ويرجع سبب هذا إلى أن بعض الأحوال يكون الصدق فيها ناقصاً وهذا يجعله عاجزاً عن أن يعبر عن طبيعته الحقة وقاصراً عن بلوغ الحقيقة، وهنا يكون مختلفاً عنها وخارجها. ولكن هذا النقص المنسوب إلى الصدق يرجع فى رأينا إلى نظرية برادلى فى درجات الصدق والحقيقة(٥٤)، فطالما يخضع

٥٤- انظر الجزء رقم ١١.

الصدق لدرجات فهو بالتأكيد خضع لحد أقل من الصدق، الأمر الذى يدفعه بإستمرار إلى تغيير جوانب نقصه وعجزه وطلب كماله المنشود فى الحقيقة، بناء على هذا تتأكد قدرة الصدق على تحديد هويته المتمثلة فى سعيه الدؤوب للاتساق، وتحديد اختلافه المتمثل فى مراحله السابقة ودرجة تطورها. لقد طبق برادلى الجدل المتطور على نموذج الصدق، فأصبح الصدق لا يتوقف عند حدود النقص، وإنما يتجاوزها بفضل نزوعه الدائم للكمال الموجود فى الحقيقة المتسقة، ولذلك يقر أن الحقيقة ليست خارج حدود الصدق فهى قائمة بوصفها كلاً شاملاً تبحث عن نفسها فيه(٥٥).

١٧ - حدد برادلى سببين للنقص هما نظرية العلاقات ونظرية النسخ Copying ونبدأ بالأولى.

(١٧-١) تصور العلاقة ضرورى لانطباقه على الموجودات كافة، فلا موجود إلا ويرتبط بعلاقة سواء مع نفسه أو مع غيره. تنقسم العلاقات إلى نوعين علاقات خارجية وعلاقات داخلية: الخارجية تعنى أن الحد لا يؤثر فى الحدود الأخرى بفرض أن كل حد له استقلال تام، وهذه دعوة للتأكيد على عدم التقاء الذات بالموضوع، أما العلاقات الداخلية فالحد فيها يرتبط بالحدود الأخرى على نحو ضرورى، وبالتالى يؤثر الحد بارتباطه أو بعدم ارتباطه فى هذه الحدود، ولذلك فالصدق بخضوعه للعلاقات الخارجية يظهر انفصالاً حاسماً بين موضوع الحكم ومضمونه وبالتالى يكون العجز عن الوصول إلى الحقيقة لأن الحقيقة لا علائقية non- relational. ويميل

٥٥- ETR: On Truth and Copying., p. 116.

برادلى بناء على ذلك إلى العلاقات الداخلية، ولا يعترف بالعلاقات الخارجية، لكنه عندما قال «إن العلاقة لا تدخل فى الحقيقة»،[٥٦] لم يحدد نوع هذه العلاقة، وإن بدا المقصود هو العلاقات الخارجية، لكن يُعتقد أن سبب عجز العلاقات عن الوصول الحقيقة يُرد إلى جانبين أولهما: هو أن نوعية الترابط فى مضمون الحقيقة يعتمد على الاتساق القائم بين جميع أطراف النسق، وثانيهما: أن العلاقات تخص عالم الظاهر فقط وهو مرحلة أقل فى صدقها من الحقيقة.

(١٧-٢) أما نظرية النسخ فهى صورة من نظرية التطابق correspondence، وهى صورة خضعت لتفسير برادلى المثالى المؤهل فى الأصل لرفض نظرية التطابق، فقد وضح لنا آنفاً أن برادلى يسعى لتأسيس صدق كلى مكتمل تتسق معانيه المشمولة، وطالما هو كذلك فلابد أن يرتبط بالحقيقة ويستمر فى هذا الارتباط. والقضية تكون صادقة حين تتوافق كل مشتملاتها معاً بحيث تتحد هذه المشتملات فى التعبير عن الصدق، فالفكر والشعور والذاكرة والإدراك الحسى والعمليات العقلية الراقية، كلها جوانب تقرر القضية الصادقة، وبالتالى تتوجه القضية أو الحكم إلى الحقيقة. إن الصدق الممنوح إلى هذه القضية أو الحكم يرتكز بشدة على الاتساق، وليس للتطابق القدرة على فعل ذلك، إنه مجرد نسخ لجانب جزئى من الواقع دون اعتبار لبقية الجوانب ودون وضع أهمية الاتساق. وبناء على هذا تؤكد نظرية النسخ على التجزئة والانفصال والعلاقات القائمة بين جوانب غير أصلية، فإذا نظرت إلى الصدق من منظور هذه الرؤية لن تجد أمامك إلا مجموعة من العلاقات المنفصلة

٥٦- AR: p. 149.

المعبرة عن المظاهر الكاذبة، ولذلك تؤكد نظرية النسخ على العلاقات الخارجية بسبب عرضها لصورة محدودة وجزئية للوجود المادى الظاهرى، وهى صورة لا تعبر عن أى ترابط بين الأجزاء بل تعبر عن حالة جزئية منعزلة نتيجة نسخها جانباً واحداً فقط للواقع. وهذا بطبيعة الحال لا يتناسب مع الحقيقة ولا الصدق، فليس الصدق خارج الحقيقة، وليست الحقيقة جزئية ولا تعكس جزءاً واحداً منفصلاً عن بقية الأجزاء، لأن أهم صفة لها هى الاتساق والترابط، يقول برادلى «الصدق والحقيقة يتجاوزان النقص وعيوب التجزئة والانفصال، فلا يوجد بينهما أى علاقات لأنه ليس فيهما حدود منفصلة، حيث يكتمل الصدق داخل الحقيقة ويتم التغلب على النقص بالتصحيح»(٥٧). إذن مفتاح الصواب هو الاتساق وليس التطابق وبناء عليه تكون المعرفة نموذجاً للاتساق الداخلى فى النسق، وترابط هذا النسق مع الواقع الخارجى، أو بعبارة أخرى هنالك تآلف بين نموذجنا المثالى القائم فى العقل وبين العالم الخارجى.

لا ينكر برادلى أهمية الوقائع المعطاه، لكنه يقرر أنها ليست جميعها معطيات حسية خالصة، وبالتالى ليست خارجية بالنسبة للعقل الذى يعيها، فإن وجد ترابط بينها وبين العقل فإن هذا الترابط ليس نسخاً لها فى العقل، إن الصدق يتجاوز المعطى الخالص باستمرار ولذلك لا نفهم – كما يرى برادلى – كيف ينسخ الصدق الحقيقة على أساس أن النسخ لا يعبر عن شئ أصلى، ولذلك لا يمكن الحصول على الحقيقة من مجرد النسخ(٥٨)، أى نسخ الوقائع فى العقل، ولتجنب هذا النسخ لابد أن يتحد الصدق بالمعرفة والحقيقة(٥٩).

٥٧- ETR: On Truth and Copying. p. 117.

٥٨- ibid: p. 109.

٥٩- ibid: p. 111.

١٨ – رفض برادلى نظرية النسخ لكنه قبل نظرية التطابق فى حدود ضيقة جداً بيّنها فى الجوانب التالية:

(١٨–١) يقوم الشخص فى محاولته البحث عن الصدق بإخضاع ذاته وكبت مشاعره وأمنياته وخيالاته وأفكاره، وكل ما لا يتصل بالموضوع أو يتعارض مع عملية البحث عن الصدق، وحين يتم هذا الأمر يمكن لأفراد كثيرين أن يشتركوا متفقين على صدق ومعرفة وهنا يكون التطابق أساسياً للصدق.

(١٨–٢) فى البحث عن الصدق فى حدود التطابق يضطر الفكر أن يتبع الموضوع المعطى.

(١٨–٣) يقبل الفكر روابط دنيا للواقع كالغرائز وجوانب الكذب والخطأ والقبح والشر، ولا يقوى ذكاؤه أن يجدد الماضى بالتذكر ولا يتوقع حاضراً أو مستقبلاً.

(١٨–٤) اللغة تنسخ الوقائع ولكن هذا نعتبره أمراً جزئياً.

(١٨–٥) الرغبة فى الصدق وطلبه ميل طبيعى فينا إذ تنشد الرغبة معرفة صحيحة منظمة، أما الرغبة فى الصدق فى نظرية النسخ تتحول إلى رغبة فى النسخ، واستمرار تلك الرغبة يؤدى إلى عدم إضافة شئ جديد فى عملية المعرفة.

(١٨–٦) عملية النسخ لا تنسخ شيئاً أصلياً، وبتكرار العملية تجد أن كل ما تنسخه لا يُعتبر شيئاً صحيحاً، فالماهيات مثلا تتعارض مع النسخ لأنها فكرة أصلية أما ما ينتج عن النسخ فليس كذلك.

(١٨–٧) التكرار وإعادة الإنتاج ليسا نسخاً لأن التكرار هو إبداع شئ متوافق مع الأصل، لكن النسخ لا يكرر شيئاً على نحو أصلى.

١٩- يؤكد برادلى رفضه لنظرية النسخ بقوله «إن النظرة الفاحصة للأمور تجعل المسائل السابقة لا قيمة لها... فأنا مقتنع تماماً أن نظرية النسخ لا يمكن قبولها برمتها»(٦٠)، وهذا دليل أكيد على رفضه للنظرية وكذلك رفضه لنظرية التطابق وإن كان قبوله لأجزاء لها نعده قبولاً ساذجاً وسطحياً، ورأينا هذا يخالف كلاً من كاندليش وقولهايم حيث رأيا أن نظرية النسخ عند برادلى هى صورة من نظرية التطابق اقتنع بها قبل قبوله للاتساق(٦١).

٦٠- ibid: p. 121- 122.

٦١- انظر: Candlish S.: The Truth about F.H Bradley Vol. 98. No. 391, July 1989. p 336.

وأيضاً: Wollheim: Bradley, Penguin Books London. 1959, p. 171.

٥ -- التجربة المباشرة

٢٠- يحيلنا برادلى إلى نوع من المعرفة أطلق عليها التجربة المباشرة immediate experience، وهى تجربة باطنية نحتفظ بها ونمارسها كحالة من حالات الشعور النقى الخالص المشبع بوعى حدسى راق، وبالتالى عندما ترتبط هذه التجربة بالصدق فلا مجال للكذب، لكن هذه التجربة ليست تجريداً لأن برادلى ينكر التجريد، إنما هى لا تبتعد عن الواقع لأنها حاوية عناصره ولكن فى هيئة أوضح وأنقى وأصدق، ولذلك فالحكم والاعتقاد يستندان لهذه التجربة بوصفها المبدأ الأساسى للمعرفة الصحيحة(٦٢)، وخاصية المباشرة الموصوفة بها التجربة تعلن عن ذلك التمثل الواعى لفهمنا الصحيح للواقع أو لنقل إنها ما يترائى أمام العقل الفاهم فى وضوح وتميز شأن القاعدة الديكارتية الأولى. إن المعرفة كيان كلى يتحقق بعناصره المتعاونة المتمثلة فى الشعور والإرادة والحكم، وتنوع هذه الجوانب يعلن عن نسق الحقيقة الكلية المتسقة التى تطبق الاتساق على هذه العناصر، وبالتالى فالتجربة المباشرة أقوى من الحكم لأنها تضمه كعنصر من عناصرها، فإذا استُقطب الحكم منفصلاً عن ارتباطه بالحقيقة يصبح تجريداً أجوف وبالتالى لن يصدق ولذلك لكى يتحقق الصدق على نحو تام لابد له أن يتقدم ويعلو فوق الحكم إلى تجربة صادقة مباشرة، وهذا ما جعل برادلى مختلفاً عن أصحاب نظرية الاتساق الذين يرون أن الحقيقة حكم واعتقاد يحددان الصدق، بينما رأى برادلى أن الحقيقة فوق الحكم(٦٣).

٦٢- ETR: On Our Knowledge of Immediate Experience, p. 190.

٦٣- Walker: Bradley's Theory of Truth, p. 103.

ليست التجربة المباشرة عند برادلى تجربة حسية experiment ساذجة، إنما هى - إن شئنا الدقة فى القول - تجربة ذوقية أو تجربة فكرية تمثل نظام الخبرة المعرفية الشاملة والصحيحة الموجهة باختيار وانتقاء الحكم. ولذلك تضم هذه التجربة نوعين للعناصر بفروعهما: الأول عناصر عقلية وهى الشعور والارادة والحكم، والثانى عناصر تجريبية كالعلاقات وموضوعات الإدراك الحسى، وهذا التنوع البيّن لمضمون المعرفة لا يجمعه إلا تجربة فريدة مباشرة تمثل كلاً واحداً شاملاً(٦٤).

٢١- يوحد برادلى بين التجربة المباشرة وأكثر عناصرها عمقاً وحبكة وهو الشعور feeling أو الوجدان، وربما لا يميز بينهما فى بعض أقوله بسبب اقترابهما الشديد من نفس الهدف، ولكن الفارق الدقيق بينهما هو أن الشعور يُعتبر عنصراً من عناصر التجربة، فيقول «كل معرفتنا تعتمد على التجربة المباشرة، فالحقيقى هو ما نشعر به على نحو جوهرى، فلا توجد حقيقة خارج الشعور، وخلاصة القول إن الحقيقة هى تجربة أو خبرة»(٦٥). كذلك يقول أيضا فى موضع آخر «واقعنا الأساسى هو التجربة المباشرة أو الشعور»(٦٦) ويتكرر نفس المفهوم فى الفصل التاسع(٦٧).

الشعور إذن هو أعلى أشكال التجربة المباشرة وسمته الأساسية هى أنه وعى لا علائقى للتنوع non- relational of diversity، ومن ثم فهو يمثل مسعى لبيان نموذج لوحدة متعالية تجمع فى نفس الوقت بين وحدتين: الأولى وحدة لكيان متفرد

٦٤- ETR: On The Ambiguty of Pragmatism. p. 141.

٦٥- ibid: Some Aspects of Truth. p. 315.

٦٦- ibid: p 310.

٦٧- ibid: On Our Knowledge of Immediate Experience, p. 173- 174.

بمشاعره ومعرفته وإدراكاته أو هى وحدة شخص متفرد، والثانية وحدة كلية شاملة لكل الأشخاص، وكلتاهما مندمجتان فى الشعور بوصفه المجال القائم بعملية التوحد ذاتها أو الوحدة. بيد أن هذه الوحدة لا يربط بين عناصرها علاقات، إنما هى تتجاوز العلاقات لتصل إلى الاتساق كرابط أساسى، وبناء على هذا فالشعور الصادق هو الذى يتحد مع الحقيقة وهو يحقق هذا الاتحاد بضم عناصره اللاعلائقية فيها. كذلك ليس الشعور جانباً فردياً لطبيعتنا، إنما هو يضم كل أشكال الوعى فى وحدة، فنحن نبدأ من التنوع وننتهى بالوحدة فى الشعور، وتنمو هذه الوحدة الشعورية باتصالها بالكل الشامل والتجربة فوق العلائقية. وهذا النهج الفكرى يمثل بياناً للكمال الذاتى أو العلو الذى يقودنا إلى المطلق، وهذا يُعد تعبيراً عن رغبة الطبيعة البشرية لطلب أقوى الإحساسات والمشاعر بوصفها عنصراً هاماً فى الحياة(٦٨).

يفسر رالف ووكر الشعور فيرى أن ما يحدد الحقيقة عند برادلى ليس الاعتقاد إنما الشعور، على أساس أن الشعور يعتبر معياراً لاتساق القضايا وعدم اتساقها(٦٩). أما فيريرا فيقرر أن ثمة فارقاً بين التجربة المباشرة وبين الحضور المشعور به فى المطلق، فالأولى وظيفتها النقد المباشر والثانى يمثل المستوى النهائى الذى يستند إليه الشعور(٧٠)، والمقصود من ذلك أن تجربتى المباشرة التى تمثل خبرتى ومعرفتى تستند إلى نموذج مثالى كائن فى المطلق حيث يُفهم المطلق بتجربة شعورية راقية.

٦٨- Saxena: Studies in the Metaphysics of Bradley, George Allen, London, 1967, p. 82-83.

٦٩- R. Walker: The Coherence Theory of Truth. London. 1989. p. 39.

٧٠- Ferreira: Bradley and the Structure of Knowledge, p. 120).

ويفسر لنا ڤولهايم الشعور بأنه يزودنا بجانبين أولهما تلك الأسس التى تُقام عليها كل الأشكال المركبة للمعرفة المستمرة من العالم الخارجي، وثانيهما يزودنا بعنصر القدرة على أن نفكر تفكيراً غير علائقى(٧١) .

٢٢- لم يكن الهدف الرئيسى عند برادلى هو «التوحيد» بين الحقيقة والشعور، وإنما بعد أن وحدهما قام بإدماجهما فى وحدة مركبة هى الأنا على أساس أن العملية الباطنية التى تتم فى الأنا وهى عملية التركيب الشعورى لوقائع الوجود ومفهوماته لا يمكن أن تقوم على وقائع كاذبة أو معرفة خطئة، وإنما لابد أن تستند إلى الحقيقة، فهذا الاستناد يعتبر صيرورة متواصلة أو بمعنى أدق قضية قبلية يقينية، كذلك يُعد اتحاداً دائماً بين الأنا وبين الحقيقة، يقول برادلى «لا يوجد انفصال بين الصدق والوقائع، فالشعور هو ما أملك، ومع أن ما لدى ليس هو الشعور فقط، وإنما لدى ذاتى والحقيقة معاً فى وحدة لا تنفصل، ونحن نعلى من قدر هذه الوحدة، وهذا واضح تماماً فنحن لا نصل إلى الحقيقة من خارجها، لأن الحقيقة تجربة داخلية»(٧٢)، إنها تجربة من نوع خاص، فهى ليست تجربتى ولا تجربة الآخرين، بل هى تجربة تعلو على كل تجاربنا الفردية وعلى كل فكر وعلاقات، إنها كما يقرر برادلى فوق الفكر والإرادة والإدراك الجمالى، وهذا يعتبر تحقيقاً دقيقاً لمبدأ الشمول.

٢٣- أما بشأن علاقة التجربة بالصدق فيقرر برادلى أن الصدق تجربة تسعى للالتحام بالحقيقة، فالحكم يُعد تطبيقاً للتجربة، وهو يصدق بسبب استناده إلى المبدأ

٧١- Wollheim: Bradley, p. 127.

٧٢- ETR: Some Aspects of Truth, p. 316.

الكلى الشامل الذى يضم كل المعانى الصادقة، وبهذا تتواجد أمامنا صلة ثلاثية العناصر هى الصدق والحقيقة والتجربة المباشرة، فالحقيقة تحقق وتكشف عن نفسها من خلال تجربة فكرية مثالية أصيلة حيث تقوم باستخدام أفكار لتحصل على نماذج خبْريّة متكاملة تشتمل على الإدراكات العليا والفهم الحدسى وإدراك الجمال إلخ، وبناء على هذه التجربة الراقية تندرج جميع الأفكار فى نسق كلى شامل، وهنا تعلن تجربتنا الخاصة عن طلبها لتلك الحقيقة المطلقة التى يتم التوصل اليها فى كل مكان(٧٣).

إن علاقة المبدأ العام بموضوعه تظهر جلية هنا - عند برادلى - فالنماذج مطلقة البقاء سرمدية الوجود، وبالتالى يمكننا أن نطلق عليها نماذج أنطولوجية أو هى «أنطولوجيامثالية»(٧٤) متعالية، حيث تتجاوز المبادئ تطبيقاتها الجزئية المتغيرة، ولكن لا فاصل بينهما بل هما وظيفتان - فى رأينا - لمبدأ كلى عام هو الوجود الإنسانى فى الكون، فالمبادئ لا تتحدد بالأفراد، بل الأفراد هم الذين يتحددون بها، حتى الحرية فهى تجمع بين الإطلاق فى المبدأ وتحديد فى التطبيق، نفس الوضع يقوم فى القانون العلمى حيث يتقرر أنه مجرد صيغة عقلية وتجريبية ليست تجريبية

٧٣- Ibid: p. 344.

٧٤- مصطلح «المثالية الانطولوجية» Ontological Idealism أول من استخدمه هو الفيلسوف الانجليزى ماكتجارت ١٨٦٦- ١٩٢٥- وسمى به مقالته المنشورة فى كتاب: Contemporary British Philosophy. ed. by J.H. Muirhead, London. 1925. وتعد هذه المقالة تلخيصاً عاماً لمذهبه الفلسفى الذى عرضه بالتفصيل فى كتابه «طبيعة الوجود The Nature of Existence صدر الجزء الأول منه عام ١٩٢٢ وصدر الجزء الثانى عام ١٩٢٧- يمكن الرجوع أيضا إلى كتابنا «طبيعة الوجود فى الفلسفة المثالية عند ماكتجارت»، دار الوفاء، الاسكندرية، ٢٠٠٠.

خالصة(٧٥)، أى هو نموذج مثالى لأنماط الوجود، لكن لا يمنعه الوضع العقلى من التطبيق على أصناف المادة، لقد وعى برادلى هذا الدرس جيداً وبدا ذلك واضحاً فى ميتافيزيقاه.

٢٤- تظهر إذن تجربتان عند برادلى، أحدهما متناهية ذات علاقات متعددة متفرقة تحتويها اللحظة المتناهية، فإذا تبع العقل هذه التجربة لن يقوى على الوصول إلى الحقيقة، ولذلك لا يتوقف العقل عند حدود هذه التجربة الجزئية لأنه يتجاوزها إلى أخرى شاملة كلية متعالية تضم كافة التجارب فى وحدة متسقة تشمل ذاتى والذوات الأخرى والعالم الحسى الموضوعى. يقرر برادلى - بناء على هذا - أن خبرتنا تبقى جزئية داخل حدود معينة، حيث تعتبر مجرد فاعلية أو نشاط مطلوب له مبررات محددة، ولكن - من ناحية أخرى - هنالك جانب فى حياتنا - وهو جانب تركيبى - يجمع شتى الجوانب ويضمها وإن لم تتحقق هذه الجوانب بالتفصيل فى كل مكان.

يرى برادلى أن الصدق هو ما يجعلنا قادرين على تنظيم معطياتنا بالاتساق والشمول، حيث تتزود تجربتنا المباشرة بهذه المعطيات عن طريق الإدراك الحسى والأحكام، ولذلك يُعلى برادلى من شأن هذه التجربة فيقرر أن التجربة المباشرة ليست عرضه للخطأ بسبب استنادها الدائم إلى حقيقة مطلقة قابلة للتحقق فى هيئة جوانب

٧٥- يمكن الرجوع فى هذا الموضوع إلى الكتاب القيم المقدم من الاستاذ الدكتور محمود زيدان باسم «من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية». الفصل الثانى باب ثان ص٨١- ١٠٠، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢.

صادقة، فإذا لم تتحقق الحقيقة بهذا الأسلوب فإننا لا نعرف إلا معرفة احتمالية(٧٦).

٢٥- هل للتجربة المباشرة صلة بالمعرفة؟ هل هما شئ واحد أم هما عنصران منفصلان؟

فى واقع الأمر ليست التجربة المباشرة منفصلة عن النظام المعرفى عند برادلى، ولابد أن نضع فى الاعتبار أن التجربة البرادلية لا تنتمى للمذهب التجريبى فى المعرفة، إنما هى عملية ذاتية خالصة لا نصل إليها بفعل إدراك حسى ساذج أو معطيات ضاغطة، إنها نشاط تركيبى تأليفى وليست نزوعاً تلقائياً، يمكننا أن نقول إننا نصل إليها بفاعلية «تجاوز» و«علو»- تجاوز الادراك الحسى المحض، وحدود المذهب التجريبى، وحدود المعطيات الدنيا العابرة، وحدود كل ما لا يساعد على إنماء المعرفة. إن برادلى يسعى إلى إرساء نسق معرفى أنطولوجى محكم بدون حذف معطيات العالم الموضوعى لكن دون الوقوف عندها، ولذلك فالتجربة المباشرة هى بالفعل نسق معرفى متكامل ومنظم. وبناء على هذا لا يمكن فصل نظرية المعرفة عند برادلى عن رؤيته الميتافيزيقية، فحدود معرفتى القائمة على تجربة مباشرة هى معرفة جزئية رغم كونها معرفة حقيقية وصادقة. المعرفة الجزئية ليست معرفة متدنية وإنما هى معرفة راقية لاعتمادها على الحقيقة، ويعطينا برادلى تبريراً لجزئيتها، فالعقل يقر بكثرة المعارف لكنه لا يقر بشمول المعرفة كلها، فأنا لا أعرف من هذه الكثرة إلا ما هو متاحاً لى. يمكننا أن نقول أيضاً إن ثمة معرفة مطلقة ضامة كل الحقائق لكن لم

٧٦- ibid: On Truth and Coherence. p. 217.

يبلغ إنسان هذه المعرفة المطلقة بسبب الطبيعة المتناهية التى تميزنا، فلا يوجد فى حوزتى إلا معرفة جزئية تخص عالمى الحقيقى وبالتالى ليس فى قدرتى شمول كافة المعارف الكونية الداخلة فى نظام المطلق، ونحن لا نشك فى وجود هذه المعارف على أساس أننا يمكننا التفكير فى كونها موجودة فقط، لكننا لا يمكننا الإلمام بها كلها لأن خبرتنا وتجاربنا مرهونة بعالمنا القائم فى حوزتنا. يقول برادلى إن حدود معرفتى محددة بعالمى، فلا أستطيع أن أضيف إليه أكثر مما يحتمل فمادة العالم الأولية المعطاة على نحو جبرى لا يمكن أنكارها. إذن هناك نظامان للمعرفة يتحددان عند برادلى أحدهما هو النظام الذهنى لدى الشخص وهو نظام ضرورى وأساسى ونظام وقائع العالم الموضوعى، ولابد أن يتفق النظامان، ولذلك يجب أن تتفق الواقعة مع عالمى من حيث الترتيب والتنظيم، فإذا تعارضت الواقعة مع عالمى المنظم فلابد من رفضها أو تكون قيد التعديل(٧٧).

٧٧- ibid: p. 212.

وايضا: ibid: On Truth and Copying. p. 109.

٦ – الصدق والتجربة المباشرة

٢٦ – يعرض برادلى لعدة موضوعات متعلقة بالتجربة المباشرة والمعرفة وهى كما يلى:

(٢٦–١) هل الصدق الذى أفكر فيه خاص بى وحدى أم هل وجد من قبل بحيث أن هنالك غيرى قد فكر فيه؟

يقرر برادلى أن الصدق مهما كان قديماً، إلا أنه يُعد صدقاً جديداً، حيث يتجدد كلما حدث التأكيد عليه وإدراكه على الدوام، فالأحداث تختلف وتتنوع، ونتيجة ذلك تتنوع الأحكام الصادرة بشأنها، وهذا التنوع ليس أمراً سلبياً، إن كل ظاهرة لابد أن تكون مختلفة عن الأخرى، وبالتالى يحدد التنوع القائم بين الظواهر مضمونها وماهيتها، وهذا المفهوم الأخير هو الذى يؤكد على تمايز الظاهرة عن جميع الظواهر فى الكون. بناء على هذا فإن كل صدق أصدره هو صدق خاص بى وحدى، ولا يوجد هذا الصدق فى عقل أحد آخر غيرى، كذلك الصدق الذى فى حوزة شخص ما لا يمكن أن يكون فى حوزتى ولذلك لا يوجد صدق عام فى حيز الموجودات المتناهية، على أساس أن التناهى الخاص بنا هو الذى يقرر طبيعة الصدق المتاح لنا.

كذلك لم يوجد صدقى (من قبل) فى عقل شخص آخر طالما أن ليس فى قدرتى معرفة الصدق الذى كان من قبل فى عقل آخر، ولذلك يرفض برادلى وجود صدق تشترك فيه عقول كثيرة، والسبب فى ذلك هو تلك التجربة الذاتية التى تقرر أن سلسلة الخبرة الذاتية تؤكد على تفرد معرفتها بوصفها عمليتها التركيبية الخاصة، فلا

يشـتـرك فـيـهـا أحـد، ولا تتكرر مع آخـرين، فـالصـدق لا يظهـر إلا لشـخـص واحـد فقـط(٧٨).

يرفض برادلى أيضـاً فكرة وجـود عـقل سـام وذكى يعى كل جـوانب الصـدق السابقة واللاحقة، وهو بذلك يخالف مثاليّ القرن الثامن عشر رأيهم بأن الله له علم تام وكامل بأحوال الوجود فضلاً عن قدرته على احتواء الماهيات فى عقله، وبذلك صار الله لديهم هو المطلق، غير أن مطلق برادلى ليس هو الله، بل هو نظام إنسانى خالص خاص بخبرة العقول المتناهية، فلا يمكن الحصول على الصدق خارج هذه العقول، هذا النوع من الصدق ليس بطبيعة الحال صدقاً عاماً لا متناهياً، لا ينتمى إلى إله مطلق ولا يخص أفراد كثيرة، بل هو نتاج تجربة فرد واحد. لكن يرى برادلى أن الحصول على مثل هذا الصدق يعنى الحصول على سلسلة من الظواهر فى الزمن، وهى لأحداث تقع مرة واحدة فقط وتندرج فى نظام القبل والبعد. غير أن برادلى لا يتوقف عند حدود هذا الصدق ونظامه الزمنى، فالحقيقة فوق الزمن وفوق العلاقات، إنها تتضمن الصدق فى هذه اللحظة وكل اللحظات سواء كانت السابقة أو اللاحقة، وسواء كان الصدق ممكناً أو فعلياً، فدخول الصدق فى الحقيقة يجعله يكتسب خاصيتى الاستمرار والحضور الدائم ولذلك لا يصح القول إن صدقى كان منتظراً هناك ثم أصبح موجوداً، بل الصحيح هو أن الصدق ينشأ كلما أدركه شخص ما(٧٩).

يجب ألا نظن أن ثمة تناقضاً فى أقوال برادلى فى هذين الموقفين فهو يقتنع

٧٨- ibid: Some Aspects of Truth. p. 335.

٧٩- ibid: p. 336.

بنوع من الصدق وينسبه للفرد ويستبعد الصدق العام، ثم يعود ويقول إن الحقيقة تضم صدق هذه اللحظة واللحظات الأخرى وهذا فيما يبدو لنا صدقاً كلياً، هيا نحلل أراء برادلى لدحض التناقض.

أ- أكد برادلى على هذا الصدق الفردى أو كما نطلق عليه الصدق الذاتى حين قال صدقى خاص بى وحدى دون غيرى، وهذا القول يمثل إعلاء من شأن الذات والتجربة الذاتية، وبناء عليه لا توجد تجارب ذاتية متشابهة تماماً بحيث تقول إن إدراكى أو تفكيرى هو نفس إدراكك أو تفكيرك، وبالتالى ليس صدقى هو نفس صدقك، إن صدقى إذن هو صدق ذاتى وبذلك لا يوجد صدق ذاتى شائع.

ب- أكد برادلى على أن الحقيقة تشمل حقائق صادقة كثيرة، وهذا القول له وجهان أولهما: أن الحقيقة كلية ذاتية وثانيهما: أن الحقيقة كلية مطلقة، ونبدأ بأولهما:-

الحقيقة كلية ذاتية خاصة، فهى كلية لأنها تضم تجارب كثيرة مترابطة ومتسقة، وهى ذاتية خاصة لأنها تمثل تجربتى أنا بوصفها تجربة جامعة لأفكار وتجارب وخبرات كثيرة خاصة بى وحدى، وبالتالى الصدق هنا هو تجربة فردية معيارية متوجهة لقطب الأنا الفاعلة والنشطة.

وثانيهما: الحقيقة كلية مطلقة بمعنى أنها تضم معارف وقوانين كونية ومبادئ عامة أو لنقل أنها تجربة كونية شاملة كل الحدود الإنسانية، وهنا تظهر علاقة المبدأ بموضوعه التطبيقى، وهذا يعنى أن برادلى لا ينكر الجوانب العامة التى تجمع العقول عليها، بل هى تشمل كافة الموجودات، إذن الحقيقة هنا تمثل كياناً أنطولوجياً شاملا، ولذلك كان ثمة اختلاف بين مثالية برادلى ومثالية القرنين السابع عشر والثامن عشر، فالحقيقة ليست فكرة فى عقل الله، وليست ماهية سابقة على كل وجود، وليست استعدادات فطرية كامنة.

جـ- الحقيقة ليست فى عالم مفارق لعالمنا أشبه بعالم المثل الأفلاطونى، بل هو عالم من صنعنا: إذن الصدق بهذه الكيفية ليس قائماً فى عالم مختلف عن عالمنا، بل لابد أن يتحقق عالم الحقيقة إما عن طريقى أو عن طريق العقول الأخرى وبالتالى فهو ليس فكرة كامنة فى العقل شأن الأفكار الفطرية عند ديكارت، إنما هى فكرة بعدية يقوم العقل الفعال بتحقيقها حين يتلقى معطياته من العالم الخارجي الموضوعى، فتنتظم هذه المعطيات داخلة فى هيئة خبرة معرفية شاملة ممتدة، حيث تخضع هذه الخبرة لمبدأين يشيعان الصدق هما الاتساق والشمول، وطالما استمرت خبرتنا فى البقاء والدوام، فلن تحتاج إلى ذلك التسلسل الزمنى الطبيعى الصارم للأحداث والظواهر، إنما تحتاج زمناً من نوع خاص، إنها خالدة ولذلك فإن ما تحتاجه هو زمن حضورها المباشر حين تُستدعى لأى غرض، وعلى هذا النحو تكون الحقيقة. إذن كان برادلى على حق عندما قال «الحقيقة فوق الزمن المحض وفوق العلاقات البحتة وتتضمن كل الحقائق الصادقة فى هذه اللحظة ودائماً»(٨٠)، فمضمون الحقيقة حاضر حضوراً أبدياً، أى يمكن أن يطلب فى أى وقت، والفكرة الصادقة فى الحقيقة ستظل على حالها تضم الماضى والمستقبل معاً فى تلك اللحظة.

(٢٦-٢) بناء على ما سبق يتساءل برادلى هل تُثبِّت المعرفة على موضوعها أم تغيره؟ ويجيب مؤكداً ضرورة التغيير، «فالواقع الذى لا يتغير عن طريق معرفة يظل باقياً كصدق جزئى ويؤخذ فى أكثر الأحيان بوصفه كذباً»(٨١)، ولذلك لابد أن تُحدِث

٨٠- ibid.

٨١- ibid.

المعرفة تغييرا فى الواقع الموضوعى. لكن ماذا بشأن الحقيقة؟ يقرر برادلى أن الحقيقة لا تتغير بمعرفتى، إنها تزداد شمولاً ويتعاظم كم مضمونها، لكن الشمول وعظم الكم لا يغيران فى طبيعتها بل يزايدها ثراء. إن ما يتغير هو الواقع الجزئى المتناه بينما الكون الكلى لا يتغير فى مضمونه، يقول برادلى «واقعة معرفتى تقوم بخلق تغيير واضح فى الواقع، أما فكرة أن الكون يتغير فهى مرفوضة تماماً، فنحن نتحرك فى منطقة حقائق جزئية صادقة، وليس فى المنطقة التى تضم كل الجوانب فى تجربة عليا»(٨٢).

بيد أن هنالك ثمة تعاوناً واتحاداً بين الحقيقة وبين وجودنا الواقعى، ويبدو ذلك فى تحوير المتغير كيما يتناسب مع غيره للقضاء على التناقض، فلابد أن تعى الحقيقة طبيعة الأحداث، ولابد أن تكشف عن نفسها سواء بفاعليتها الخاصة أو عن طريقنا، وبذلك يوجد اتحاد بين الحقيقة والمعرفة.

(٢٦-٣) يناقش برادلى موضوعاً غاية فى الأهمية وهو (هل الصدق مصنوع؟) ويهاجم به كلاً من وليم جيمس وجون ديوى فى تأكيدهما على أن الصدق مصنوع. ويبدأ برادلى بالنتيجة، أن الصدق ليس مصنوعاً كمقدمة لجدله، فيعلن بداية أن فكرة صنع الصدق هى فكرة خطئة، حتى لو قيلت على مستوى الاحتمال وليس على مستوى التصديق، ويبرر برادلى دحض هذه الفكرة من خلال مشكلة الزمن، فيقرر أن لفظ «يصنع To make»، أو «مصنوع made» يعنى عملية إنتاج معتمدة على الزمن فى سريانه الطبيعى، كما تعتمد على الوضع فى المكان، فأى موضوع «يوجد»(٨٣)

٨٢- ibid. p 337.

٨٣- استخدم برادلى الفعل «يوجد axisis».

فهو يبقى ويستمر لفترة زمنية معينة، بيد أن هذا البقاء ليس خاصية جوهرية للشئ الموجود، إنه «بقاء لحظى»، أو هو استمرار لحدث زمنى محدود عابر، فيمكننى أن أصنع جلبة أو أقوم بفعل ما كأن أرفع يدى تحية لشخص ما، لكن الجلبة وحركة التحية لا يستغرقان كل الزمن ولا يخلدان، ما يستغرق زمناً معيناً هو - كما يرى برادلى - ما يحدث what happens أو جانب حدوث aspect of happening فى زمن، وهذا الجانب هو الذى تقوم فيه كلمة «يصنع». إذن فعل الحدث نفسه أو عملية الحدوث لا تتجاوز الزمن إنما تستغرق زمناً، يمكننى أن أصنع صندوقاً، لكنى لا أصنع طبيعة المادة، كذلك لا أصنع صفات الصندوق نفسها، فلا أصنع الطول لكنى أجعله طويلاً. نفس الأمر فى حالة تلوين الصندوق بلون أصفر هى عبارة عن حدوث فى زمن، أما اللون الأصفر فهو حدث فى زمن أو حدث قائم فى زمن، وأيضاً وصف شئ بأنه جميل هو حدوث فى زمن، أما الجمال نفسه فى الوجود فهو حدث قائم فى الزمن، والفارق بين الجانبين أن الأول هو «حدوث فى زمن محدد» أو عملية الحدوث فى «زمن نسبى» خاص بالموجود الفاعل وبالموضوع المفعول، أما الثانى فهو حدث قائم فى الزمن المطلق خاص بجميع الموجودات الفاعلة وبسائر الموضوعات المتنوعة، الأول يحدث وينتهى حدوثه الذى استغرق وقتاً، والثانى وجود باق، أو هو تعبير - فى رأينا - عن خاصية «اللازمن»، والمقصود بها دوام الوجود بلا تحديد نسبى لحظى، وليس انكاراً للزمن.

بناء على هذا يقرر برادلى أن الصدق والخطأ، والجمال والقبح والخير والشر هى جوانب لا يمكن أن تُصنع[٨٤]، بل هى ما بها تُصنع الأشياء، إنها معان دائمة

٨٤- ibid: p. 339.

الوجود، وثمة فارق بين المعنى والواقعة يتضح من خلال تمييز برادلى بين الصندوق كفكرة وبين تطبيقه كواقعة، فثمة فارق بين الصندوق المصنوع وبين الأسلوب الذى صنع به، إذ يمكننى صنع الصندوق، لكن لا يمكننى صنع الأسلوب، وبرغم ذلك لا يوجد انفصال بين الاثنين، فالصندوق لا يوجد بدون أسلوب لصنعه، كذلك الأسلوب نفسه بدون التحقق يُعد تجريداً، ينطبق نفس الحال على الصدق، فالصدق نفسه هو الأسلوب الذى توجد به القضية الصادقة فلا صدق بلا قضية صادقة أو فكرة صادقة(٨٥) .

بناء على هذا يتجاوز الصدق والخير والجمال الوقائع الزمنية وسريان الزمن، بيد أن هذا التجاوز يتم من حيث الماهية، أما التحقيق فيظهر فى تلك الوقائع(٨٦) . ومما لاشك فيه أن هذه النتيجة الأخيرة تمثل موقفاً طبيعياً لبرادلى، وهى ليست تطرفاً فكرياً، إنما تبرز جانب الاعتدال لدى العقلية المثالية المتطورة عند مثاليّ القرن العشرين، فلم يتوقف برادلى عند الطبيعة التقليدية للماهية ولم يكتف بنظرة سطحية لفكرة الخلود، بل أظهر فى «الخلود» معنى جديداً، وإن شئنا نقول نظرة واقعية صحيحة نطبقها فى شتى مناحى حياتنا وأساليب تفكيرنا، فالمعنى خالد أما التطبيق فمتغير.... المبدأ ثابت أما السلوك مختلف.... فكرة الإحسان ليست هى الشخص المحسن، كذلك فكرة الصدق ليست هى الحكم الصادق.

إذن لا مانع أن نقتنع بفكرة تجاوز الزمن الظاهرى، فالمعانى الخالدة كالصدق والحق والجمال هى – وفق نظرية برادلى – تحيا فى زمن معقول أو بمعنى أدق فى

٨٥- ibid: note p. 339.

٨٦- ibid.

لا زمن يُفهم بالعقل، لكن لم يكن هدف برادلى عالماً مفارقاً كما سبق القول، إنما قصد عالمنا الواقعى الذى نحياه، ونحن نحياه بجانبيه: الأول فهمه عقلياً من خلال مفهومات ثابتة دائمة بوصفها مبادئ أساسية نستند إليها وهى تتجاوز بماهيتها سريان الزمن، والثانى أن هذه المفهومات ليست تجريدات خالصة بل هى تقبل التحقيق فى وقائع جزئية تستمر فترة زمنية محددة، وكلا الجانبان موجودان ولا يمكن أن ينكرهما شخص، وإن كانا ليس من طبيعة واحدة(٨٧).

يقول برادلى «حينما تحصل على موضوع خير أو جميل فإنك تحصل على شئ يتجاوز الزمن والأحداث، فصدق هذه اللحظة قد يكون كذباً فى لحظة أخرى(٨٨)، وبذلك يوجد صدق لحظى يُنسب لواقعة حصلت على صدق جزئى، وبناء عليه لن يوجد خلود فى هذا الصدق. ويوضح برادلى هذه الفكرة من خلال مثاله (الحجرة مضيئة الآن ثم أظلمت)، فلا أحد ينكر أو يكذب أن الحجرة كانت مضيئة، لكن هذا الصدق ليس إلا صدقاً جزئياً وليس خالداً، إنه بهذه الطريقة صدق مصنوع. أما الصدق الحقيقى فهو خالد يتجاوز الأحداث والظاهر والزمن الظاهرى، وكل ما يُدرك بوصفه موضوعاً مادياً خاضعاً لتدفق اللحظات وتعاقب الأحداث.

يهدف برادلى إذن إلى أن حياتنا اليومية العابرة قد تعطينا شيئاً من الصدق، لكنه لن يدوم نظراً لطبيعتها المتغيرة واتساع مجال الخطأ فيها وسوء الإدراك وكذب الأحكام. ولكن وراء كل هذا عالم المبادئ الأساسية الذى يمنحنا سلامة الاختيار

٨٧- وهذا وإن دل فإنه يدل على أن ثمة تأثيراً كنطياً واضحاً فى تفكير برادلى يبدو جلياً فى ذلك الاعتدال الفكرى الملحوظ عند كليهما (الباحث).

٨٨- ibid.

وصواب الحكم، ويمنعنا من الزلل والخطأ، وبناء على هذا فإن تجاوز الزمن يعنى دوام الصدق والعكس صحيح.

يعطينا برادلى أيضاً تمييزاً بين الحدوث والوصف: الأول خاص بموضوعات مستقلة بذاتها فى العالم المدرك حسياً، أما الوصف فهو خاص بعقلى أى خاص بصفات لا تحدث كالموضوعات المادية، إنما تصف هذه الموضوعات، فقد يقال إنك تجعلنى سعيداً، لكن لا تجعل السعادة جميلة وصادقة وخيرة، لأن السعادة صفة كالصدق والخير والجمال. الصفات على هذا النحو لا تحدث ولا توجد عينياً إلا من خلال موجود يحملها، لكن لا يعنى حملها أنها تتلاشى من الوجود كشئ زائل، إنما هى ثابتة كفكرة أو ماهية. الصفة إذن لا تُصنع، وهى مفهومة عقلياً وليست عرضة للصدفة والتغير، فالذى يتغير هو الموجود الذى تُحمل عليه الصفة وليست الصفة، كذلك الصفة ليست من مادة العالم ومع ذلك لا يمكن فهم العالم إلا بها، أو هى بتعبير برادلى «تبقى فى العالم ولكنها ليست منه»(٨٩).

(٢٦-٤) الموضوع الأخير فى هذا الجزء يدور حول ما إن كان الصدق يعتمد علىّ أم لا، ولكى نفهم جدل برادلى لابد أن نوضح فى البداية أن العلاقة لا تقوم بين الصدق والحكم الصادق أو القضية الصادقة، إنما تقوم بين الصدق وبين الشخص الذى يقرر الصدق من خلال الحكم، فحين نحكم بالصدق على قضية ما نتساءل ما الذى يحتاج إلينا هل الصدق نفسه أم الموضوع الواقع عليه الحكم بالصدق؟ وهنا تظهر أمامنا علاقة ثلاثية الأطراف بين الصدق وبين مَنْ يحكم بالصدق وبين القضية

٨٩- ibid: p. 341.

موضوع الحكم(٩٠).

يبدأ برادلى جدله بعرض النتيجة الأساسية كمقدمة لموضوعه فيقرر «أن الصدق لا يعتمد علىّ أو الصدق لا يعتمد على فعلى، ففعلى يأتى بصدق فى الوجود، لكن الصدق نفسه قائم وراء أى فعل يحدث في الزمن»(٩١). وطالما أن الصدق يتجاوز الزمن فهو لا يعتمد فى وجوده المتعالى على نمط الفعل الإنسانى، وبالتالى لا يسعى الصدق للتحقيق فى الواقع بذاته بدون وجود من يطلبه، وهذا يعنى أن القضايا والأحكام والأفكار تحتاج الصدق كيما يحدد طبيعتها بينما لا يحتاجها الصدق، لذلك وُسم الصدق بخاصية التعالى.

لقد جعل برادلى الصدق حائزاً على خاصية الخلود والقبلية حين قال «يمكن اعتبار الصدق قبلياً على فعلى ومن ثم يمكن أن يُدرك»(٩٢)، وقد استخدم جميع أفعال الجملة فى المبنى للمجهول للدلالة على أن الصدق موجود بدون الاعتماد علىّ إلا فى حالة واحدة هى الوجود الظاهرى، أما فى الوجود المتعالى فلا يعتمد فيه علىّ.

لقد جعل كنط الخاصية القبلية من وظيفة العقل النظرى الخالص وبالتالى يمكننا أن نجد ثمة تعالياً للذات، لكن يمكننا أيضا أن نجد عذراً لبرادلى فى هذا الجانب، فكما جعل كنط للذات قدرة متعالية، جعل برادلى للحقيقة تلك القدرة المتعالية، وهى ليست قدرة فقط بل هى وجود أيضاً، كذلك صارت الحقيقة عنده نموذجاً لتعالى الذات، لأنه

٩٠- هنا تعود للظهور المشكلة الأزلية بشأن العلاقة بين الفكر والوجود أو الذات والموضوع.

٩١- ibid.

٩٢- ibid.

لا يصل إليها إلا تلك الذات. بناء على هذا يصح أن ينطبق إذن على الصدق خاصية اللازمنى، timelessness حيث يظل قائماً فى نسق انطولوجى دائم وما علىّ سوى القيام بعملية توفيق بين الصدق كفكرة وبين الموضوع المحكوم عليه، وهذه العملية هى المعتمدة علىّ بسبب أن فعلى - كما يقول برادلى - هو الذى يأتى بالصدق فى الوجود، أما الصدق نفسه فإنه يقيم وراء الفعل الكائن فى الزمن ،ففعلى لا يمكن أن يكون خالقاً، إن ما يقوم به هو ما يمكننا أن نطلق عليه ثنائية الواقعة والفكرة، وخلق الاثنين معا ليس من قدرتنا، إنه أمر وراء هذه القدرة،(٩٣) . ويبرر برادلى هذا الأمر بتقريره أن الصدق لو كان تجربة تقوم إرادتى بإيجادها بطريقة ما لانتهت المشكلة، لكن إرادتى يستحيل لها فعل الخلق بسبب كونها محدودة بالواقعة الجزئية. وبناء على هذا أى فعل أقوم به لابد أن يدخل فى نطاق الوجود الزمنى وفى نفس الوقت يدُخل فعلى فى هذا الوجود معنى أو شيئاً لا يعتمد علىّ إلا فى حالة دخوله فى هذا الوجود النوعى.

٩٣- ibid: p. 342.

٧ - الصدق والحكم

٢٧- ارتبطت نظرية الصدق عند برادلى بالحكم Judgment كما ارتبط الحكم بالنسق، والجوانب الثلاثة (الصدق- الحكم - النسق) تعد مبادئ أساسية فى نظرية الاتساق. فالحكم الصادق هو الحكم المتسق مع بقية الأحكام الأخرى الداخلة معه فى النسق، إذن يكتسب الحكم الصدق من طبيعة النسق، وكما سبق القول إن الحكم الصادق أو القضية الصادقة يستمدان الصدق من طبيعة الحقيقة وليس من طبيعة الحكم نفسه، ولذلك اختلف برادلى عن أصحاب نظرية الاتساق الذين جعلوا الصدق مرهوناً بلحظة إصدار الحكم، ويرون أنه إذا لم توجد أحكام أو اعتقادات صادقة لن يوجد صدق بالمرة وبالتالى الصدق مشروط بوجود أحكام. أما برادلى فلم يسلم بهذا الوضع إذ رأى أن الأحكام صادقة بسبب أن طبيعة الحقيقة متسقة وصادقة، فإذا لم تقتنى الحقيقة أحكاما جديدة لا يعنى هذا عدم وجود الصدق. إن الحقيقة عند برادلى كيان أنطولوجى صحيح وشامل ومتسق دائماً، ولذلك فإن كل جزء داخل فى الحقيقة ليس منعزلاً عن بقية الأجزاء الداخلة معه فيها أو فى النسق، إنه بالضرورة جزء من كلٍ رحب فسيح، فلا يمكن أن نحكم على الجزء (أ) بأنه (أ) فقط، ولكن لابد أن نضع فى الاعتبار علاقته بأجزاء - أو موجودات - أخرى هى ب، جـ، د، هـ. إن فكرة الانفصال تسبب ارتباكاً وتناقضاً فى النسق، ولذلك لا معنى للانعزال داخل الحقيقة.

لقد جعل برادلى الصدق بمثابة منهج لتحديد الحكم سواء بالصدق أو الكذب، وبالتالى يؤثر على نظام الأحكام، حيث يقوم الصدق بتمييز الأحكام داخل الأحكام نفسها، فتترابط وتتسق الأحكام الصادقة ويتم التخلص من الأحكام المتناقضة غير

المتسقة أو يتم تعديلها(٩٤) . ونتيجة لهذا يرى برادلى أن الأحكام يشترط لها أن تندمج في النسق وتتسق مع أكبر قدر من الأحكام، وبهذا تستمر عملية الترابط بين كل مضمونات النسق وينعكس الحال على الأحكام، الأمر الذى يجعل الحقيقة ذات طابع موسوعى . إذن لا يشمل النسق أحكاماً تركيبية فقط، وإنما يشمل أيضاً أحكاماً مبنية على تجربة حسية إذ يقرر أن فكرة النسق تتطلب شمول كل ما هو ممكن، هذا يعنى أن نسق الأحكام المقبولة لابد أن يتفق مع كافة أنواع الأحكام سواء كانت أحكاماً صدرت عنك أو مستقبلة تعتزم إصدارها، أو أحكام خاصة بالتجربة الحسية، والخلاصة أن نسق الأحكام ليس جانباً ذهنياً خالصاً معزولاً عن التجربة الحسية .

كذلك يرتبط النسق بخبرة الشخص الأساسية بوصفها مادة اختيار وفحص معطيات التجربة الحسية حيث تكون الأحكام مقبولة لأنها تعتبر تفسيرات لتجربة الشخص الحسية المستمرة فى التغير والتجديد(٩٥) . إذن لا تعنى الأحكام الداخلة فى النسق الشامل أنها داخلة فى نسق بديهى وإنما هى تنتظم فى نسق ترابطى مركب بحيث يرتبط كل حكم بالأحكام الأخرى . ويرى برادلى أن مركب الأحكام يعيننا على تحديد خصائص العالم الطبيعى المألوف الخاص بأجسامنا، كما يعتبر هذا المركب جزءاً من نسق كلى لأفكار مقبولة من جانبنا تساعدنا على معرفة الصدق المنسوب للكون .

٢٨- يقرر برادلى أن كل حكم يشترط الجانب الشخصى personal أو الذاتى subjective الذى يؤكد على طابع الاستقلال، ومن ثم يهدف البحث عن الصدق إلى

٩٤- Wollheim: Bradley, p. 176

٩٥- ETR: p. 211

تحديد مثالى للموضوع، بيد أننا لا نلبث أن نجد للتنوع مجالاً على أساس أن الذاتية هى الجانب الذى يشكل الاختلاف والتنوع الأمر الذى يسمح بتطبيق التمييز والاستقلال الذاتى، أو كما يقول برادلى الذاتية هى ما تختلف فى كل حالة عن الحالة الأخرى حيث يوصف المستقل بذاته بالنسبية relative نظراً لخصوصيته الملموسة وبذلك يصير معتمداً على شعور أحادى متحدد فى مركز متناه. لكن برادلى برغم اقتناعه بالذاتية سواء للحكم أو لمن يُصدر الحكم، إلا أن هذه الذاتية ليست خالصة على نحو مطلق، لأنها لو كانت كذلك لتحولت إلى نوع من الانغلاق الذاتى وتبدل الاستقلال إلى تنافر، لذلك لابد من وجود ثمة ترابط من نوع خاص، وهو ترابط قائم على الاتساق بوصفه أساس النسق. فلا يوجد شئ فى الكون الكلى منفصلاً أو مفككاً، فإذا تجمعت الأشياء وتساندت سواء داخلنا أو فى عالمنا الخارجى لن يتواجد مكان للتنافر وعدم الترابط(٩٦)، بناء على هذا يقوم برادلى بتحديد الفرد بكامل هيئته فى ترابطه بصلات كثيرة مع كل موجود آخر، وهذا التحديد قائم على أهم قواعد المذهب المثالى بصفة عامة وهى الخاصية الترابطية لجميع أجزاء الكون إلى الحد الذى لا يسمح مطلقاً بالانفصال وهذا الترابط منظم ودقيق ومتسق، فالحد الذى فى أول السلسلة يترابط مع الحد الذى فى آخرها عن طريق خصائص محددة متواصلة بينهما، وهذا الترابط لا حذف فيه، فكل جزء يشغل وضعاً محدداً فى النسق بحيث إذا حُذف جزء أثر الفعل فى البناء برمته، فلو تخيلنا سلسلة الحروف الأبجدية سلسلة صادقة لا تبديل مطلقاً لأجزائها، سنجد أن حذف حرف يؤثر فى النسق ككل. ينطبق هذا المعنى على نظرة

٩٦- ibid: p. 328.

برادلى، فالفرد متعدد الخصائص متنوع التوجهات والميول والأهواء والأفكار والاستنتاجات والأحكام، فضلاً عن مذهبه السياسي وتأثيره الاجتماعي ونظريته الفلسفية، كل هذه الجوانب تميز الفرد، لكن لا يمنع أن يقترب منه أحد مشترك معه فى نفس الميول والنظرية الفلسفية والميل السياسي، وفى النهاية كما يقرر برادلى أنه لا يمكن أن يوجد كلٌ مفكك، إن اختلافاتنا ومميزاتنا أمر ضرورى لكن لابد ألا نخضع للاختلاف الصارم وإلا صار تشتتاً، يجب علينا أن نتجاوز التنافر والتشتت لنصل إلى الوحدة التى تضم كثرة، فلا تنافر ولكن يوجد تميز، ولا تشتت ولكن تنوع. وهكذا يدعو برادلى إلى وحدة، لكن ليست وحدة جامدة، كذلك لا يدعو إلى كثرة مبعثرة بلا رابط، فالوحدة هنا هى أساس الكثرة وباعثة للنظام وناشرة للنسق.

ونتيجة لهذا تقودنا فكرة الذاتية المعتدلة فى الحكم إلى فكرة «الفريد» uniqueness، ويناقشها برادلى فى الفصل الرابع من كتابه «مبادئ المنطق» فيقرر أن لخاصية الفريد دور هام فى بيان ذاتية الموجود وتفرده بكيانه الشامل لنفسه فى واحدية متصلة متماسكة(٩٧)، ولذلك يجمع الحكم ذاتية وموضوعية بوصفهما مركبين ناتجين عن خبرة شخصية مضمونها الفكر والإرادة والشعور، حيث تلتقى هذه الجوانب معاً لتكشف عن الحقيقة الموضوعية.

إذن تتحدد أمامنا الخاصية الجوهرية للحكم بوصفه ليس مجرد حالة نفسية نوعية، ولكنه – كما بدا لنا من تفسير برادلى – عملية سيكوفيزيقية، تشكل فعل الاستمرار الطبيعى فى الواقع الحسى المتحد مع النموذج المثالى فى العقل، وهذا يعتبر

٩٧- PL vol 2. p 647

دلالة على مشاركة الحقيقة في تركيب وتأليف الواقع، ففي الحكم لا تكون الفكرة خالصة فحسب إنما هي صفة للواقعي أو خاصية لما هو واقعي، ونسب «الصفة» للفكرة ليس نعتاً لها، وإنما قصد به برادلي بياناً لتحقيق الفكرة واقعياً، فأي فعل لابد أن يجمع بين الصفة الذهنية وبين العالم(٩٨). وبناء على هذا تتشكل رابطة بين الداخل والخارج تعمل على نحو متسق داخل الذات كفاعلية نشطة مستمرة للحكم، وهذا يعني أن ثمة عنصراً خارجياً أمام الذات متمثلاً في الموضوع المحكوم عليه، وعنصراً داخلياً هو ما يؤلف مضمون خبرتنا بالوجود. والخبرة عند برادلي تمثل التجربة الشعورية المباشرة التي تتألف من جانبين غاية في الأهمية هما الفكر والشعور، والجانبان لهما صياغة مختلفة عند برادلي عما هو متعارف عليه، فعالم الفكر هو الجانب الذي أفهم به العالم المدرك حسياً، ولذلك فأنا أشكل لنفسي نمطاً مفهوماً لهذا العالم يتوافق مع ما لدي من أفكار عنه، أما الشعور فهو الجانب النفسي مني والذي يستمر مع عالمي المفهوم ويجعل حكمي وفهمي متميزين ومن ثم يعبر الشعور عن الجانب الذاتي لديّ(٩٩).

٢٩- كل حكم يستند بالضرورة إلى خبرة فكرية معرفية، وهي فكرية ومعرفية معاً بسبب أن ما نعرفه ينتظم في نسق فكري خبري، حيث تساعد هذه الخبرة الفكرية في القيام بعملية الحكم، وهنا يؤكد برادلي على وظيفة جديدة للحكم هي الانتقاء selection ومهمتها إعادة تنسيق مضمون الخبرة بما يتساوى مع كل تجديد يأتيها

٩٨- ibid: vol. 1. p. 11.

٩٩- ETR: Our Knowledge of Immediate Experience. p. 175- 176.

بحيث يتناسب المعنى المثالى مع التحقيق التجريبى، وهنالك عدة حالات يظهر من خلالها الانتقاء المنظم:

(٢٩-١) لحظة إصدار الحكم هى لحظة مركبة، فأنت أثناء القيام بعملية إصدار الحكم، تقوم بعملية فكرية شاملة ليست مقصورة فقط على النمط الفكرى الخالص، وإنما هنالك جوانب شخصية متاخمة للحظة إصدار الحكم أو قبلها مباشرة كالرضى والقبول أو النفور ألخ، هذه الجوانب تراود العقل لحظة الإصدار، لكن بعده تجد الحكم خالياً تماماً منها لأنه قام بعملية إنتقاء فأقصى ما لا يحتاج إليه وأبقى على نموذج لحكم مثالى، وهذا يعنى أن جانب الرضى الشخصى الذى راود الشخص أثناء إصدار الحكم قد صار مستبعداً تماماً من الحكم بعد الإصدار(١٠٠).

(٢٩-٢) إذن لحظة إصدار الحكم يكون فيها الحكم مطلقاً غير قابل للتعديل، لكن بعد الإصدار يمكنك أن تفكر فيه وتتأمله وتصححه، وهذا الفعل الأخير لابد أن يستند بالضرورة على عملية انتقاء.

(٢٩-٣) يجب على الحكم ألا يشير إلى شئ وراءه ففى كل حكم لابد أن تكون الحقيقة النهائية حاضرة بالفعل وتامة، كذلك لابد أن يكتمل أى حكم بالجمع بين الصدق والحقيقة، وهذا يعنى أن الصدق لا يشير إلى شئ غير حقيقى.

٣٠- كل حكم على الرغم من تفرده وأحاديته، إلا أنه لابد أن يرتبط بنظام الكون، لكن قد تسبب هذه العلاقة تناقضاً حين يحرف الحكم ليتحول إلى عمومية قائمة على التجريد العام وليس النوعى، بمعنى تحويل الجزئى إلى عام أو تطبيق

١٠٠- ibid: Some Aspects of Truth. p 329.

الأفكار الجزئية على أمور كثيرة، وهذا لا يصح لأنه يقوم بتشويه المعنى الأساسى وبالتالى يصير مضمون الحكم متناقضاً. إن الأفكار التى من هذا النوع تفتقر إلى الخصوصية والتحديد ولا تعبر عن حقيقة واقعة محددة، فإذا قلت (إن حادث السيارة الذى تعرض له زيد جعله أقل قدرة من ذى قبل) فإنك ستجد أن مضمونات الموضوع فى عقلى هى أن لدى فكرة عن شخص يدعى زيد وحادث سيارة تعرض له وعجزه عن أداء بعض الحركات. لكن هذه الأفكار يمكن أن تنطبق على شخص آخر يدعى زيد له نفس الظروف والأحوال التى كانت للشخص الأول، وبناء على هذا لا توجد تلك الخصوصية والتفرد لتلك الأفكار، ولذلك حين يُصدر شخص ما، أو عدة أشخاص أحكاماً قائمة على طبيعة القضايا السابقة، لا نجد وحدة فى تقريراتهم إنما يحدث تذبذب واختلاف شديدين فى فهمهم للموضوع الواحد الأمر الذى يدعو إلى صدور تقريرات مختلفة لموضوع حصل على أكثر مما يحتمل. بعبارة أخرى... إن كثرة التأويلات القائمة على تجريد وتحريف الموضوع كثيراً ما تصيب الحقيقة بالتشويه، فيلتقى الأفراد فى اختلاف سلبى لا فى تنوع إيجابى وهذا بدوره يؤدى إلى تناقض شديد، ولذلك لابد من تحديد المعنى الحقيقى لموضوع التقرير الذى يعتمد على تخصيص دقيق لانطباق القضايا على نفس موضوعها وجوباً واتفاقاً مع استبعاد أى فرصة للاستثناء بامتداد القضية أو الحكم الأحادى الخاص بفرد معين إلى فرد آخر وإلا كان فهمى المحدد للقضايا السابقة فهما مبالغاً فيه من خلال أساليب معينة لا تؤدى إلا إلى التحريف والتناقض، فهذا الشخص «زيد» هو نفسه الذى تعرض لنفس «الحادث»، وأصابه هذا «العجز» المحدد(١٠١).

١٠١- اعتمدنا بتصرف فى هذه المناقشة على التحليل الرائع الذى قدمه فيريرا Ferreira فى كتابه المشار إليه آنفاً، انظر ص١٢٤ من كتابه.

إذن كل حكم لابد أن يتقوم على نحو جوهرى بالفردية والخصوصية والانتقاء، فهنالك أحكام يجوز لها التعميم نظراً لطبيعتها الكلية الشاملة وهى طبيعة حقة لا زيف فيها، وهذا النوع من الأحكام لا يندرج تحت المثال السابق، فبرادلى يقتنع تماماً أن التعميم الجزئى ما هو إلا تحريف لكل ما هو صحيح، وفى نفس الوقت يقتنع أيضاً أن التعميم الخالص ما هو إلا تجريد أجوف لا وزن له، ولذلك فالحكم المعمم على نحو صحيح ليس تجريداً خالصاً وإنما هو انتشار مشفوع بتضمن فى الشمول، ولا يتحقق هذا إلا فى الحقيقة الشاملة للجميع، هذه الحقيقة تظهر لى ولك ولكل شخص يسعى لمعرفة صحيحة... يقول برادلى «الحكم يشير دائماً إلى مضمون مثالى للحقيقة، حيث تصير الحقيقة بمثابة الكون كله فى هذه اللحظة»(١٠٢)، ومثالى هنا ليس مستخدماً بالمفهوم التقليدى ولكن يعنى ما هو متصور ومركب ومفهوم بالعقل. وبناء على هذا نرى أن لحظة صدور الحكم تعتبر تقريراً مثالياً يربط أو يوحد مضمون الخبرة الفردية التى تشكل نظاماً يبدع نموذجاً معرفياً عبر مراحل زمنية متتالية تصب فى الزمن الحاضر الذى يعتبر بيئة صحيحة لقيام الحكم.

٣١- يعرض برادلى رأياً فريداً فى علاقة الحكم بالحقيقة، نود أن نمهد له بالنتيجة الآتية: لا يوجد حكم باق على جزئيته وتفرده، ولا حكم مستمر فى كليته وعمومه، هذا الأمر يقودنا إلى مشكلة هامة هى علاقة النسق بمشتملاته أو علاقة الكليات بالجزئيات أو علاقة الوحدة بالكثرة، وبطبيعة الحال للمشكلة وجه ميتافيزيقى بدا جلياً عند ليبنتز وهيجل وماكتجارت وظهر فى مبدأ مركب هو مبدأ الكشف

١٠٢- ETR: p. 331.

manifestation، ويهـدف هذا المبـدأ إلى بيـان أن أى جـوهر كلى فى الكون يكشف عن نفسه من خلال الخصائص التى تحملها أجـزاؤه، كذلك الأمـر بالنسبة للأجـزاء نفسها التى تتحد معاً لتعكس طبيعة الكل، وهذا يعنى أن الجزء لا يتوقف عند جزئيته إنما سعيه متواصل ليتحد مع الأجزاء الأخرى فى أداء مهمة كشف أو إظهار طبيعة الكل The whole، نفس الأمـر بالنسبـة للكل، فـهو لا يكتفى بعمـوميتـه إنما لابد أن يتحقق من خلال أجزائه التى تحمل صفاته(١٠٣).

يمكننا أن نجد ثمة اقتراباً عند برادلى من نفس المعنى السابق، فأى حكم يحمل الطابع الشخصى بوصفه حكما فريداً متفرداً خاصاً بشخص بعينه قام بإصداره، لكن برادلى يرى أن الحكم لا يتـوقف عند هذه الحـالة المتـفـردة وإلا كـان الانعـزال، وإنما يسعى الحكم على الدوام ليلتحم بالحقيقة النهائية أى ضرورة أن يدخل فى نسق محدد كيما ينتظم كعنصر من عناصر خبرة أو معرفة. إن كل حكم يجعل الحقيقة النهائية حاضرة بالفعل حتى يلتحق بها ويكشف عن نفسه فيها وعن طبيعتها أيضاً، بعبارة أخرى، كل حكم يكشف عن قدرة الحقيقة على إكمال نفسها الدائم من خلال اللحظة الحاضرة التى ينفذ الحكم منها إلى هذه الحقيقة ليزيد بذلك ثراءها. إذن يشير الحكم دائما إلى مضمون مثالى للحقيقة يتحقق الآن، وبالتالى تنشأ علاقة أو رابطة وثقى بين الحقيقة بوصفها كلاً شاملاً وبين الحكم بوصفه كياناً جزئياً لحظياً، أو فعلاً مميزاً من أفعال العقل، ولذلك فأى حكم لابد أن يتجاوز جزئيته المتمثلة فى تفرده وكذلك

١٠٣- انظر كتابنا «طبيعة الوجود فى الفلسفة المثالية عند ماكتجارت»، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٠، ص١٠٨.

فى جزئية اللحظة الخاصة به، وهذا التجاوز على درجة كبيرة من الأهمية للحكم وللنسق عموماً، على أساس أن الحكم يصدق بل ويكتمل صدقه إذا صار مشمولاً داخل النسق، أما إذا لم يصدق أو لم يكتمل صدقه فمعناه عدم وصوله للحقيقة نتيجة بقائه فى المراكز المتناهية فى الزمن، بيد أنه لا يستسلم لهذا التناهى بسبب تجاوزه المستمر وتوجهه للحقيقة، إن صدور الحكم لابد أن يتم «الآن» ومن ثم يتحدد صدقنا ومعرفتنا بهذا «الآن»، لكن «الآن» جزئى الوجود ولو توقفنا عنده فإن ماضينا ومستقبلنا يتوقفان أيضاً، وبذلك نعجز عن الوصول إلى فهم الكون الأكثر اتساعاً(١٠٤) .

٣٢- لم يكن هدف برادلى - مما سبق - تجاوز «الآن» أو «الزمن الحاضر» كوجود، إنما قصد به أن يكون التجاوز خاصاً بالحكم حيث يتجاوز الحكم لحظته الجزئية وفرديته ليلتحق بالنسق العام.

لكن هنالك وجه آخر للمشكلة متعلق بالزمن الحاضر، فبرادلى ينظر إلى هذا الحاضر بوصفه المجال الطبيعى الذى يتحقق وجودنا فيه، وتتوجه المشكلة نحو محدودية الحاضر الخاص بى سواء على المستوى الوجود الفيزيقى أو مستوى الفهم والمعرفة، يتوجه برادلى للمستوى الثانى فيقرر أننى لا أحيا ألا فى زمن حاضر وإن كنت لا أمتلك كل جوانبه، فأنا لدى مكانى الخاص ولحظتى، وكذلك هنالك آخرون يشتركون معى فى هذه اللحظة، إذن الحاضر بهذه الكيفية نظام كلى يضم مشتملات عديدة، وهذا دليل على عدم تجاوز الحاضر نفسه كوجود زمنى، إنما التجاوز نفسه يتحقق فى أن يتجاوز الحكم جزئيته، وبناء على هذا تتوجه المشكلة لفكرة أخرى

١٠٤- ETR: p. 332.

جديدة تقوم على الفكرة السابقة تتعلق بمحدودية المعرفة، فبالرغم من أننى أحيا الآن فى الحاضر إلا أننى لا أمتلك كل جوانبه على نحو مفصل أو «كل تفصيلاته»، فما أعرفه الآن أو فى أى لحظة سابقة أو لاحقة، ما هو إلا جانباً معرفياً بسيطاً خاصاً يتحدد وفق قدرتى المعرفية، ولكنه جانب صادق، ولكن هذا الجانب برغم محدوديته إلا أنه يشكل عالمى الحقيقى الذى يشتمل على خبرتى وامتدادها بعملية الانتقاء والاختيار فى الحاضر وتوقع مستقبل مأمول، هذا العالم موجود أيضا عند الأفراد الآخرين، فكل شخص له عالمه الحقيقى، ولكننا جميعاً نشترك فى عالم واحد يشملنا، وعلى الرغم من عدم قدرتنا معرفة هذا العالم تجريبياً بكل تفصيلاته، إلا أننا يمكننا أن نفكر فيه أو نبنيه عقلياً عن طريق الانتقاء والتركيب. وهكذا يحقق الكون نفسه عن طريق مراكزنا المتناهية، فهو برغم كليته وعمومه إلا أنه يرتبط بنا ليكشف عن نفسه ويحقق ذاته عن طريق خصائصه التى تحملها الأجزاء(١٠٥).

٣٣- تنبنى الحقيقة على نماذج منتقاه تم تحديدها تأليفاً وتركيباً، وهذا يعنى أن فكرتى ليست مرتبطة بموضوع غامض وإنما هى داخلة فى نسق منظم حيث تأخذ مكانتها فى هذا النسق ويتأكد وجودها سواء بقوة أو بضعف، وبناء عليه فالحقيقة واقعية وليست تجريدات مبهمة، ومن ثم فهى كبناء دقيق هام تمثل عالم الخبرات الإنسانية بجانبيه الحسى والذهنى. وبرغم أن العالم الحسى ليس من إبداعنا إلا أنه يشكل كل خبرتنا، وهو عندما يدخل فى العقل يشكل مجالاً صحيحاً لقيام الحكم وتحقيق الاتساق، فإذا كنا على دراية تامة بموضوع حكمنا، فإننا ندرك الدرجة التى يتسق فيها

١٠٥- ibid: p. 332- 333

مع الأحكام الأخرى، وبالتالى فإن قبول الحكم أو رفضه يتم عن طريق مجموعة روابط تقوم فى العقل توصلنا إليها بتجربتنا المباشرة، فحين نقوم بإصدار حكم ما نفترض هذه الروابط قبلياً، وهذا يعنى أن هذه الروابط تخص أحكام سبق صدورها ولها علاقة بالموضوع الجديد، وسوف تظل هذه الروابط باقية لأنها تزود العالم باستمرار بأحكام جديدة وما على الحكم سوى أن يتوافق مع العالم أو يتصادم معه، فالحكم يصدق حين تتسق حدوده ويكذب إن لم تتسق(١٠٦).

إذن لا يعنى انتظام الأحكام فى النسق مجرد نظام فكرى خالص، لكن من الواضح أن هذا النظام يعين أيضاً على تحديد خصائص العالم المألوف الخاص بوجودنا الفيزيقى وفرض الترتيب والاتساق عليه. بيد أن كل هذا يتم من خلال بناء أنطولوجى فرضته الميتافيزيقا، فالنسق الفكرى ضرورى للنسق الطبيعى كيما نحصل على صدق بشأن الكون، أو بعبارة أخرى هنالك نسق ميتافيزيقى - كما وضح عند برادلى ومن سبقوه - يقوم بالربط بين النموذج الفكرى المثالى وبين العالم الموضوعى.

١٠٦- Ferreira: p. 126.

٨ – الصدق والشمول

٣٤– الحكم الصادق كما بينه برادلى يجمع بين الاتساق والشمول فى هوية واحدة. والشمول عنده ليس تعميماً تجريدياً للتجربة التى نحصل منها على خبرة معرفية، وإنما هو ربط منظم لتنوع العالم الموضوعى من جانب وتنوع معارفنا وأفكارنا من جانب آخر.. بيد أن الشمول من جانب ثالث يرتبط بوثاق مع الميتافيزيقا، فالحكم يصدق لأنه متسق مع الأحكام أو القضايا الحقيقية، وبالتالى يصير مشمولاً فى نسق معين، وهذا النسق بطبيعة الحال يمثل أعلى درجة من درجات الميتافيزيقا.

الحكم فى الشمول له وجهان: الأول أن يشمل الحكم عدداً من الحدود المتسقة والثانى أن يكون هو نفسه مشمولاً فى نسق متسق، فجميع أفكارنا سواء الناتجة عن خبرة أو المركبة فى العقل لابد لها أن تشمل عناصر كثيرة متنوعة تسهم فى إيجاد رؤية تصورية خاصة، فالقضية «الماء يغلى فى درجة حرارة ١٠٠ تحت ضغط جوى واحد» تشمل أربعة أركان:

- صفة فى العقل عن طبيعة المادة بوجه عام.
- فاعلية وأثر الغليان.
- نظام الحرارة.
- فكرة الضغط الجوى.

فى هذا التقرير نقوم بمحاولة تحديد المجال الواسع لمركبات التجربة الحسية بضم وتجميع العناصر المختلفة داخل وحدة منظمة(١٠٧).

لكن لبرادلى هدف ميتافيزيقى بجانب ذلك الوعى الفيزيقى الذى نبهنا إليه فيريبرا فى المثال السابق، فالحكم يرتبط بنسق الحقيقة، وهو فى سعيه لتحقيق ذلك يزداد رسوخاً وتأكيداً، ولذلك تتواجد أحكام أكثر شمولاً ورحابة من أحكام أخرى، وهنا نلاحظ اقتراباً واضحاً من هيجل وماكتجارت فجميعهم يقررون أن المطلق يستوعب أجزاء كثيرة، وكلما زيد المضمون يزداد غنى النسق، وبناء على هذا تصير كل الأحكام متوافقة ضمنياً مع غيرها حتى لو كانت أحكاماً فردية، فلابد أن نضع فى الاعتبار أن جميع الأحكام تسلم بتقريرات المطلق على نحو نهائى حتى لو كان التقرير يخص حكماً فردياً، فالمهم هنا هو أن تترابط الأفكار بالاستناد إلى وحدة شاملة تعين على ظهور الصدق، فضلاً عن أن هذه الأفكار تثبت وتدوم طبقاً لتماثلها مع الحقيقة المطلقة، أما خلاف ذلك فستجد التفكك هو السمة الغالبة حيث يخفق الصدق ويعلو التناقض.

٣٥- هنالك علاقة وطيدة بين الشمول وبين فكرة الترابط attachment، فالأجزاء المشمولة فى النسق لابد أن تترابط وتتسق لكى تصدق ولذلك لا توجد أحكام صادقة غير مترابطة، إنما ما يجعل الحكم أقل صدقاً هو أن يكون أقل تماسكاً وترابطاً، فالقول «مارى سعيدة» هو قول ممثل لعلاقة بين جوانب عامة لا تكشف إلا عن درجة للترابط أقل، فكون السعادة محمولاً يُحمل على مارى فى مناسبة خاصة لا يعنى أنه

١٠٧- ibid: p. 131

جانب جوهرى لها يعمل على أن تترابط بشئ آخر، إنه مجرد حالة خارجية تؤثر فى ترابط جوانب الحكم. أما الحكم «كل الرجال فانين» فإنه يشير إلى وجود علاقة متداخلة فى كل الأحوال بين خاصية الرجولة وخاصية الفناء، وهى علاقة قوية، وبالتالى نجد ثمة تداخلاً ترابطياً للكليات، فإذا فكرت فى إحديهما تم استدعاء الأخرى، وهذه الكليات تعتبر محمولات شاملة تفرض التنظيم على مضموناتها من خلال الترابط، فضلا عن أنها هى نفسها مترابطة مع كليات أخرى واسعة الانتشار، وهنا تصبح القضية «كل الرجال فانين» قضية موجبة وأكثر صدقاً لشمولها وانتشارها من التقرير الواجب لنفس المضمون وهو «كل رجل فان». وهكذا يقوم الحكم الصادق على تلك العلاقة الضرورية بين الكليات حين تكشف عن نفسها فى الوجود فى لحظات متنوعة، بالإضافة إلى إمكانية الانتشار والانطباق على نماذج متنوعة فى تجارب كثيرة، فالقضية «الخشب يطفو فوق الماء» تنتشر فى مساحات واسعة من خلال التجارب العملية حيث تُقبَل هذه التجارب إن أثبتت ذلك وتُرفض لو قررت عكس ذلك(١٠٨). وبناء على هذا يصدق أى حكم طبقاً لدرجة شموله واتساقه وتجاوزه للرؤية المحدودة وليس فقط وفقاً لما يملكه من حدود، وهنالك مثال على الحكم المحدود، فالقضية أو الحكم «هذا مؤلم» تعبر عن مساحة محدودة جداً فى الواقع بوصفها تنطبق فقط على هذه اللحظة أو اليوم وليس غداً، وهذا يجعل الحكم مفتقراً إلى خاصية أساسية هى الشمول والانتشار، ولذلك لابد أن يتجاوز الحكم الحدود الجزئية ليرتبط بحقيقة كلية شاملة.

١٠٨- أنظر التحليل الدقيق الذى قدمه فيريبرا ص١٣١- ١٣٦.

٣٦- تتقابل نظرية الشمول مع نظرية مناقضة وسالبة لها هي نظرية الأفكار الشاردة Floating ideas(١٠٩) ويقصد بها أن كل فكرة لا تصف الحقيقة كمضمون مثالي ليست إلا فكرة شاردة(١١٠).

يرى برادلي أن نظرية الأفكار الشاردة تندرج تحت الدراسة العامة لطبيعة الأفكار فيقول «تشرد الأفكار حين تكف عن العمل مع الحقيقة، نفس الحال يحدث عندما نتعامل مع خبرات أو آراء نستخدمها بدون أن تدل على صدق، فحين لا نعرف الفكرة الصادقة وحين نعرف أن الفكرة ليست صادقة... كيف إذن تصف هذه الفكرة الحقيقة، إنها لن تكون غير فكرة شاردة»(١١١). لقد بدا الهدف الرئيسي في ميتافيزيقا برادلي بل وسائر المثاليين هو التأكيد على الاتساق ومد جذور الترابط ليسود بين جميع أجزاء النسق، ولذلك فالفكرة التي لا تترابط ولا تدخل في النسق هي فكرة شاردة.

بيّن برادلي هذا المعنى أيضا في كتابه «مبادئ المنطق» فيقول «الفكرة خارج الحكم هي فكرة شاردة بنفسها»(١١٢). وهو يقرر هذا المعنى باستخدامه الفعل "Loose" فيقول متمماً ما سبق «ما لدينا إذن ليس واقعة فعلية ولكن تجريد زائف، فماهية الفكرة على هذا النحو تكون مفككة loosening ولا تربط بين الموضوع

١٠٩- ظهرت النظرية كمقال نشر في مجلة Mind ابريل ١٩٠٨. وأعيد نشره في كتاب «مقالات في الصدق والحقيقة» الفصل الثالث.

١١٠- David Holdcorft: Bradley and the Floating Ideas. An Essay in "Appearance versus Reality", p 164.

١١١- ETR: On Floating Ideas and the Imaginary. p29.

١١٢- PL: p. 640.

«هذا» والمحمول «ما»(١١٣). وبناء على هذا لابد أن ترتبط attach بالحقيقى كصفة له، ولذلك لن توجد فى نهاية الأمر فكرة تشرد،(١١٤) إن كل فكرة بالعقل لابد لها أن تستخدم، فلن يكون لأى فكرة وجود بلا معنى أو بلا هدف، وبناء على هذا لا تصلح الأفكار الشاردة لإقامة أى حكم. وأكد برادلى أيضاً فى «الظاهر والحقيقة» وفى «مقالات فى الصدق والحقيقة» على هذا الأمر محدداً أسباب رفضه للأفكار الشاردة كما يلى:

(٣٦-١) وجود الأفكار الشاردة لا يتناسب مع تطور ميتافيزيقا المذهب المثالى التى تقرر أن الحقيقة تجربة متسقة شاملة لكل شئ على نحو مترابط(١١٥).

(٣٦-٢) وجود الأفكار الشاردة يقوض نظرية الاتساق كمعيار للصدق، وبالتالى سنكون عاجزين عن بناء نسق أكثر شمولاً وصدقاً.

(٣٦-٣) كان برادلى على وعى تام بأن للفكرة إستخدامات متنوعة وأن لها أساليب مختلفة لوصف الحقيقة وهذا ما دعت إليه الميتافيزيقا الحديثة. وبناء على هذا لا تنفصل الأفكار عن بعضها البعض، فالحقيقة الشاملة تضم جميع الأفكار حتى لو كانت فردية، فإذا وجدت الفكرة تدعيماً وسنداً من الحقيقة لن تعد شاردة.

يبين برادلى الحالات التى تشرد فيها الأفكار وتكذب، فيقرر أن الأفكار إذا حددت جانباً جزئياً له وجوده فى العالم الفعلى فإن هذا التحديد لا يمكن الاعتراض عليه

١١٣- Ibid.

١١٤- ETR: p.28.

١١٥- ibid: On Appearance.. Error and Contradiction. p. 246.

حتى لو كان جزئياً، ولكن إن لم تحدد شيئاً فإنها تكون فكرة شاردة وبالتالى تتوجه نحو الخطأ. كذلك يقرر أن الفكرة التى تشرد تتوجه نحو النسبية التى تُظهر واحدية الفكرة وإنعزالها، ولذلك لن تشرد الأفكار فى المطلق بسبب وحدته وتماسكه، إنها ترتبط بأرض أخرى غير تلك الأرض الراسخة فى الحقيقة(١١٦).

تؤدى نظرية الأفكار الشاردة إلى الخطأ بسبب إدخالها أحكام كاذبة فى نسق الاتساق على أنها صادقة وإقصاء أحكام صادقة بحجة كذبها. يتصدى برادلى لهذه النقطة فيقرر أن الأحكام المتسقة لا يمكن لها أن تكذب مطلقاً ولا أن تتحقق على نحو خطأ، ولكن تكذب إذا أشارت إلى الحقيقة فى أضيق المعانى، وهى تقع فى هذا الفعل نتيجة تسلل الظن والخداع والخطأ إليها، ويرجع هذا كما يقرر برادلى إلى قدر من الحرية يسمح لنا أن ننسب إلى الصدق أحكاماً كاذبة أصلاً، وهذا النوع من الأحكام يدخل ضمن الأحكام الشاردة وهو بهذا يهدد شرعية الاتساق حين يُدخل فى النسق قضايا متسقة وكاذبة فى نفس الوقت، ولقد أزعج هذا النوع من القضايا برادلى إلى حد كبير، ولذلك وضع نصب عينيه تجنبها بحجة أن الأفكار الواردة إلى الحقيقة هى أفكار ذات هدف محدد، فضلا عن كونها مختبَرة ومسلم بها(١١٧).

١١٦- Ibid: On Floating Ideas. p. 36.

١١٧- Wallheim: Bradley. p. 179.

٩ - الصدق والخطأ

٣٧- يرتبط الصدق بمشكلة الخطأ، ويعالج برادلى هذا الموضوع بطريقة فريدة وجريئة، فيبدأ مقرراً أن وجود الخطأ نفسه كمبدأ أو كتصور عام يكون على نحو مطلق، لكن الخطأ لا يمكن أن يوجد إلا بارتباطه بحكم أو قضية، والحكم الخطئ ليس مطلق الوجود لأن به إمكانية التغيير إلى الصواب، هذا من جانب، ومن جانب آخر لا ينسب برادلى الخطأ إلى طبيعة الأحكام أو الأفكار نفسها وإنما إلى أسلوب استخدامها وتركيبها وطريقة فهمنا، فالحكم الصادر وفقاً للمنظور الشخصى قد يصيب، ولكنه قد يُخطئ بسبب فقدانه الاتساق والمعقولية فى الروابط التى تقيم بناءً موضوعياً صحيحاً، وبناء على هذا ليس الخطأ قائماً فى المحمول أو الصفة المنسوبة للموضوع إنما فى عملية ترتيب وتنسيق هذه الصفات وتركيبها فى قضية معينة، فالقضية «الحديد يتمدد بالحرارة»(١١٨) قضية صادقة لاتساق أطرافها، لكن القول «الحديد يتمدد بالبرودة» قضية كاذبة لعدم اتساق أطرافها. بيد أن هذه القضية ليست مرفوضة واقعياً فقط - كما يرى برادلى - ولكن الخطأ يكمن فى عدم اتساق وترتيب حدودها، لأن الحدود نفسها منعزلة تعتبر حدوداًصادقة، - الحديد - التمدد - الحرارة - البرودة - وهى جميعها موجودة ولا يمكن إنكارها بل هى محمولات حقيقية تصف الواقع وتعبر عما هو كائن فيه.

١١٨- المثال من وضع الباحث.

يعرض برادلى المشكلة فى كتابه «الظاهر والحقيقة» فيبدأ بتقرير التمييز بين المبدأ العام وبين تطبيقه الجزئى، فالخطأ لا يقوم فى المبدأ العام بل فى جزء من أجزائه، فالكل لا يتحطم بسبب سوء فهمنا، والفكرة العامة باقية حتى لو لم ندركها الآن. وبناء على هذا فالخطأ ليس دحضاً لتجربتنا المطلقة(١١٩)، وإنما هو عقبة أمام فهمنا للمطلق، إذ يخفق الفهم نتيجة حكمنا من مركزنا المتناهى على المطلق، فضلا عن الجهل الذى يصيب معرفتنا، ولذلك لا يؤثر الخطأ فى مضمون الحقيقة بسبب طبيعتها المطلقة، ومن ثم فإن تقرير الكذب يتم بالاعتماد على أسس ناقصة أى متمثلة فى صفات أو محمولات تحمل النقص وسيئة فى الفهم والترتيب والتوافق، أما إذا كان الفهم صحيحا فإنه يُقصى الصفات السالبة ويقضى على أى خطأ. إذن فجميع المحمولات حقيقية ويرى برادلى أن حقيقتها ليست مقصورة على مكانها فى عالم الموضوعات الفيزيقية بل على وضعها فى الكون الحقيقى الرحب الشامل، وبرغم ما فى عالمنا الحسى من معارف مترابطة إلا أن برادلى يعتقد أن الحقيقة النهائية ليست خاضعة للأحداث الزمانية والمكانية(١٢٠).

٣٨- الخطأ فى أصله ظاهر كاذب يتقابل مع الظاهر الصادق وهذا الأخير به صدق ونستمد منه معرفة وإن كان صدقه ونوع معرفته ناقصين. كذلك يرتبط الظاهر الصادق بالذات المتناهية(١٢١) التى ترتبط بدورها بالحقيقة من خلال درجات

١١٩- AR: p. 164.

١٢٠- انظر فقرة ١٥.

١٢١- الذات المتناهية هى ذواتنا، وهى متناهية بسبب قدرتها المعرفية المحدودة ولكنها - أى الذات- مرتبطة بالحقيقة.

متفاوتة(١٢٢)، وبناء عليه فثمة علاقة غير مباشرة بين الظاهر الصادق وبين الحقيقة، أما الظاهر الكاذب أو الخطأ فهو لا ينتمى إلى الذات المتناهية وكذلك لا يسعى ليرتبط بالحقيقة، وبالتالى فهو ليس له وطن ولا مكان، لكنه برغم هذا موجود ووجوده مقصور على الظاهر، بل هو نوع من الظاهر الكاذب. ويحدد برادلى العلاقة بين الظاهر الكاذب وبين الخطأ وبين الصدق من خلال العلاقة بين الموضوع والمحمول، ويطلق برادلى على الموضوع «هذا That»، وعلى المحمول «ما What»(١٢٣).

الظاهر الكاذب إذن هو انفصال الموضوع عن المحمول، وهو تفكك الصفة عن الوجود وانقسام الشئ الواحد إلى جزئين منفصلين وكيانين متباعدين(١٢٤)، ينطبق نفس الأمر على الصدق حين يكون ظاهراً، حيث تنفصل فيه الصفة عن الوجود والفكرة عن التحقيق، وبذلك يكون الاختلاف بين وجود القضية أو الحكم وبين مضمونها. إن الفكرة الصادقة إذن هى التى تصف الحقيقة دون أن يختلف مضمونها عن موضوعها، لكن المتعارف عليه أن الفكرة كمضمون تختلف عنها كحدث ووجود، غير أن الفكرة الصادقة هى التى تجمع بين الجانبين فترتبط بوجودها كواقعة، أما الخطأ فهو إزدياد درجة الاختلاف فى الظاهر بين الفكرة كمضمون وبينها كحدث أو واقعة، وهذا إن دل فإنه يدل فى رأينا على أن مبدأ الاتساق لا يسرى فى الصدق فقط وإنما فى شرايين مذهب برادلى برمته فيؤكد على أهم جانب فى الفكر المثالى عامة وهو مبدأ الترابط القائم على اتساق وتناغم الأعضاء، ولذلك فالفكرة

١٢٢- ibid: p. 165.

١٢٣- سوف نستخدم مصطلحى الموضوع والمحمول نظراً لعدم ألفة اللغة العربية بـ «ما» و«هذا».

١٢٤- AR: p. 166.

الصادقة حتى لو كانت ظاهراً فهى ليست خطأ تاماً، لأنها - فى نفس الوقت - لا تتوانى عن اللحاق بالحقيقة كيما ترتبط بها فى وجود من نوع متميز يقوم بوصف الحقيقة على نحو مثالى. إذن تعبر الفكرة الصادقة عن مثالية المتناهى حيث لا يتوقف هذا التعبير عن أداء مهمته، إنه عملية مستمرة فى العلو الذاتى من أجل إكمال المضمون وغناه حتى يصبح الحكم تاماً وحقيقياً وفق الدرجة التى يتسق بها مع موضوعه(١٢٥).

بناء على ما سبق يتحدد الخطأ فى كونه مضموناً انفصل عن حقيقته وواقعه، وارتبط بواقع يتناقض معه، إنه فكرة ترفض وجوداً ليس وجودها لأنها منفصلة، إنه صد وفشل جاء عن طريق صفة مفككة، بهذا المعنى يكون الظاهر كاذباً ومجالاً لصدام الفكرة مع الواقع، كذلك يعلن برادلى أن الخطأ محمول يناقض نفسه حين يصف واقعاً يناقض مضمونه واقعه(١٢٦).

٣٩- هنالك علاقة بين الخطأ والحقيقة، وهى علاقة سلبية وإيجابية فى نفس الوقت، فهى سلبية لأن الحقيقة ترفض الخطأ بسبب عدم تناسبه مع طبيعتها، وإيجابية لأنه يحدد طبيعة الحقيقة الأساسية من حيث كونها طبيعة ترفضه، إن طبيعة الحقيقة هى الاتساق أما الخطأ فطبيعته التناقض، وطالما أن الاتساق هو طبيعة الحقيقة فإضافة أى محمولات تتناقض معها تعتبر خطأ فعلياً موجوداً واتصالنا بالحقيقة لا يعنى أنه لغى من الوجود فجميع العناصر المرتبطة بالوجود هى جوانب لا يمكن التخلص منها،

١٢٥- R.W. Church: Bradley's Dialectic, George Allen, London, 1942, p. 95.

١٢٦- AR.: p. 166.

ولذلك لا سبيل إلا قبول الواقع ومحاولة تصحيحه إذا كان به خطأ، فبرادلى يقتنع تماماً أن الكون الميتافيزيقى شامل لكل شئ بلا حذف حتى الخطأ نفسه، أى يعى كل جوانب الخطأ فى الوجود على أساس أن لديه نظاماً للأخطاء والزلات التى نقع فيها، وفى نفس الوقت يكشف النظام المقابل الصحيح، وهذا يعنى أن علم الحقيقة بالتنافر discordance والتناقض discrepancy الموجودين فى الظاهر الكاذب إنما يكون من أجل استيعابهما فى محاولة القضاء عليهما عن طريق معيار الاتساق وفرض التوافق والترابط بين الأجزاء.

هكذا يبدو برادلى فيلسوفاً مثالياً متطوراً يجمع بين تفاؤل العقلانية المثالية، واعتدال العقلانية الواقعية، وبالتالى تظهر أمامنا نظرياته مقنعة إلى حد كبير، فتفاؤله المثالى يتمثل فى رؤيته أن تجربتنا تستوعب الفشل والنجاح والصدق والكذب والخير والشر، والإخفاق والتوفيق، جميع هذه العناصر موجودة ولا يمكن إنكار إحداها لمجرد أنه عنصر سالب، إننا نميل بطبيعتنا نحو الجوانب الخيرة والصادقة، ولكن الكذب والإخفاق موجودان بيد أننا لا يمكن إنكارهما وإنما يمكن أن نعتبرهما دليلين يرشدان إلى الصدق وإلى العمل الدؤوب من أجل النجاح.

أما اعتدال العقلانية الواقعية فيتمثل لديه فى الرضى بعدم إمكانية إزالة كل تناقضات الوجود ويبدو هذا فى قوله «معرفة كل عناصر الكون ومتعلقاتها بخيرها وشرها أمر مستحيل على العقول المتناهية»(١٢٧)، ولكنه يعلن أيضاً أن فى إمكاننا إعادة بناء تناقضاتنا واختلافاتنا الخاصة وندرك أننا لا نعرف إلا جزءاً من كل، لكننا

١٢٧- AR.: p. 170.

نعرف أن ثمة مبدأ عاماً للشمول، ونعرف أن هذا المبدأ مطلق وأنه غنى بمحتوياته ونعرف أيضاً أننا لا يمكننا أن نحصى جميع محتوياته تفصيلاً بسبب حدود قدرتنا المتناهية.

٤٠ – الخطأ إذن ليس سلباً خالصاً، فالمضمون المتعارض قائم فى خلاف، ولكنه خلاف إيجابى حيث يوجد ثمة اتصال بعناصره فى المطلق بهدف اكتمال العناصر، لكن برادلى يرفض الرأى القائل إن العناصر توجد فى علاقات مع موضوعاتها فى المطلق وهذا يعنى أن العناصر الظاهرية الموصوفة بالخطأ يمكن أن تشارك المطلق عن طريق علاقات تربط بينها وبين موضوعاتها، ويستند برادلى فى رفض هذه الفكرة إلى حجتين: أولهما أن المطلق لا يتألف من علاقات من أى نوع، وهو يعتمد فى هذا على الحجة المعروفة عن أن العلاقات تخص الظاهر فقط ولا تساعد على معرفة يقينية نظراً لطبيعتها الانتقالية بين الحدود، فالفكرة العلائقية فكرة مفككة منفصلة متغيرة كثيرة الإنقسامات وهذا من طبيعته أن يوقع فى تناقضات كثيرة. أما الحجة الثانية فهى أن العلاقات تلغى الوحدة والتناغم تماماً وتؤكد على الاختلافات.

يقوم برادلى بعد ذلك ببناء نظريته فيقرر أنه برغم أن الخطأ يجعل الانسجام مستحيلاً إلا أنه لديه إمكانية تصحيح نفسه والاندماج فى تجربة عليا تسمو على كل خلاف وهذا يتحقق عن طريق توحيد عناصر الحكم عندما يتم التوافق بين الموضوع والمحمول فتكتمل العناصر وتتمم القضية، وبناء عليه لا ننطق بحكم غير كامل أو منقوصة عناصره، وإنما لابد أن يكون الحكم مكتملاً متمماً مقلاً فى إنعزاله وانفصاله عن المجموع حيث يتواجد كعنصر أساسى داخل الكل، ونتيجة لهذا يرفض برادلى الخطأ المطلق طالما أن إمكانية التصحيح متاحة، فالخطأ هو نوع من التنافر لكنه ليس تنافراً تاماً، حتى فى الظاهر نفسه، فضلا عن إنعدام وجوده فى الحقيقة. إذن الحكم

الخطئ يحمل قدراً من الخطأ وقدراً من الصدق، وحتى لو كان قدر الخطأ أكبر إلا أن قدر الصدق يسمح بإمكانية تصحيح المضمون حتى يكون الحكم أقل خطأ وأكثر اتساقاً وصدقاً في عناصره . ونلاحظ مما سبق أن التصحيح يتم على مستوى المضمون ولا يقتصر على اتساق العلاقات الخارجية فقط، يمكننا أن نجد ثمة مساعدة من المنطق الصورى لفهم رأى برادلى، فالقضية «كل الأزهار حمراء» هى قضية صحيحة منطقياً ولكن مضمونها غير دقيق لأن حقيقة الأمر تقرر أن ثمة أزهاراً أخرى ذات ألوان مختلفة، ولذلك فصدق القضية السابقة هو صدق جزئى . والسؤال الآن هل بهذه القضية يوجد خطأ، والإجابة من منظور برادلى نعم يوجد بها نوع من الخطأ، وهو يأتى نتيجة اعتبارها حكما عاماً - بسبب كونها كلية - موجبة - حيث تنطبق على كافة الأزهار، ولذلك فالقضية الكلية الموجبة الدقيقة التى تتناسب مع رأى برادلى هى «كل الأزهار لها روائح مختلفة» إذ نجد فيها ثمة اكتمالاً فى عناصرها من حيث الشمول والاتساق والترابط، وبناء على هذا يسعى الحكم على الدوام لإكمال مضمونه عن طريق فرض التوافق والتناغم والشمول بين عناصره والقضاء على جزئيته، لأن الحكم الأقل جزئية، أقل نقصاً وأكثر صدقاً .

٤١ - الخطأ والحكم مرتبطان فى الظاهر وبالتالى الحكم الذى يُخطئ له أهمية تتمثل فى التواصل المستمر لعملية التصحيح من أجل الصدق والاتساق مع الحقيقة، وبالتالى فالحكم الخطئ ليس سلباً خالصاً لأنه يحمل قدراً من الصدق، وكل ما فعله أنه أخفق فى إنجاز الحمل المقصود فحدث تنافر بين محمول الحكم وموضوعه، ولذلك لا ينظر برادلى للخطأ بوصفه أمراً ضرورياً تمر به جميع الأحكام، فمن الجائز أن يصيب الأحكامَ الخطأ، ولكن من الجائز أيضاً أن تنجو منه . وبذلك يقرر برادلى أن الخطأ ليس سمة للأحكام فى الظاهر بل هو مجرد علاقات ظاهرية تشكل تنافراً بين الموضوع

والمحمول، ويرى أن الفارق بين الحكم الصادق والحكم الكاذب أو الخطئ هو فارق من حيث الدرجة والنسبية وليس من حيث النوع، وهذا الرأى يُرد إلى مبدأ درجات الصدق والحقيقة، فأى حكم يحتمل الصدق والكذب، وبالتالى فالحكم الذى يتضمن قدراً أكبر من الشمول والاتساق هو حكم صادق - كما سبق معرفته - ونفس القول ينطبق على الحكم الكاذب حيث أن الحكم الأكثر كذباً أقل شمولاً واتساقاً.

وخلاصة القول إن الخطأ أمر قائم بالفعل ولا يمكن رفضه، ولكن الدلالة الحسنة فيه هى كونه يدفع إلى التوجه المستمر نحو الصدق بالتعديل والتأهيل، وكأن برادلى يدعونا إلى الإيمان بخلود الحقيقة وإلى التفاؤل بأن لحظة الوصول إليها قادمة، يقول برادلى «المطلق لديه كل الصفات بدون حذف وبه كل ترتيب، إذ يتبين أننا نتآمر عليه بأخطائنا وزلاتنا، وهذا يجعلنا فى قصور عن بلوغ الاكتمال، ولا أقصد بإعادة ترتيب المادة المعطاة لنا أننا يمكننا إزالة التناقضات، ولكن نظراً لأن وجودنا محدود، فلا يمكننا أن نستوعب كل جوانبه وتفصيلاته، ولابد لنا أن نتذكر أن كل ترتيب قديم قد حُكم عليه بالخطأ إنما يشكل جزءاً من تفصيلات الكون. إن معرفة كل عناصر الكون بخيرها وشرها أمر مستحيل على عقولنا المتناهية، ومن الواضح عدم قدرتنا على إزالة كل تناقضات الكون لكننا نستطيع أن نصل إلى معرفة تساعدنا على أن نجعل أحكامنا أقل تناقضاً وأكثر اتساقاً(١٢٨).

-١٢٨ AR: p. 169- 170

١٠ - الصدق والفكر

٤٢- الصدق والفكر متضايفان على نحو إيجابي، أما عند برادلي فهما على نحوين إيجابي وسلبي، فأما الجانب الإيجابي فمعروف على أساس أن الصدق أو الحكم الصادق هو بطبيعة الحال فكر صادق وبالتالي لا يمكن أن ينعزل الصدق عن الفكر، أما الجانب السلبي فيكمن في عكس القضية «كل صدق هو فكر» ويتحدد في السؤال الآتي: هل كل فكر هو «صدق»؟ أو هل كل فكر هو فكر صادق؟

وإجابة السؤال هي أن العلاقة بين الصدق والفكر ليست دائماً إيجابية، فلا يشترط أن يكون كل فكر هو فكر صادق بل قد يُخطئ في بعض الأحيان، وهو - أي الفكر - يُخطئ عندما يقع في تناقضات، وتقتصر معرفته على الجزئي بدلا من الكلي أو يمتد حكمه الجزئي لينطبق على جوانب عامة. كذلك يُخطئ الفكر إذا وُجد به تشتت في الكثرة وإقلال في الوحدة، وتحول إلى إدراك نسبي، وتوجه إلى فكر انتقالي discursive Thought يشير إلى ظواهر لا تحقق أي معرفة، بيد أن الجانب السلبي له ضرورة وقتية، فإذا كان الخطأ نوعاً من الفكر السلبي، وإذا كانت ضرورته وقتية إذن فهو يسعى لتصحيح نفسه.

٤٣- يرى برادلي أن الفكر يصيبه الخطأ نتيجة تواجده في الظاهر، حيث تكون سمته الرئيسية هي أنه فكر علائقي، وإذا صار كذلك فإنه يعجز عن بلوغ الحقيقة(١٢٩)، فالسمة المميزة للظاهر هي العلاقات، ويكون كل ترابط فيه منسوب إلى علاقة قائمة بين طرفين أو أكثر.

١٢٩- AR; p. 28.

لقد دافع الفيلسوف «توماس هل جرين» ١٨٣٦ – ١٨٨٢ عن مقولة العلاقة بوصفها تضفى على الأشياء قيمة حين تقوم بالربط فيما بينها(١٣٠) وسبقه كنط عندما جعل تصور العلاقة تصوراً أساسياً فى مقولاته. أما برادلى فإنه يقرر العكس، فالعلاقة لديه تعلن عن نسبية بين الموضوعات لأننا حين نحكم ظاهرياً ننسب إلى هذه الموضوعات خصائص نسبية متغيرة تربط بينها علاقات من نفس النوع، وطالما أن الموضوعات متغيرة وكثيرة، إذن تربط بينها علاقات كثيرة متغيرة ومختلفة عن بعضها البعض، وبتغير العلاقات وتنوع الموضوعات وزيادة درجة الكثرة تضيع الحقيقة ويتوارى الصدق ولا نصل إلا إلى ذلك الصدق الجزئى، بل إن طبيعة العلاقات التى تقوم بالربط فى عالم الظاهر تنحصر فى كونها علاقات خارجية، وما هو خارجى لابد أن يكون متبدلاً ومتغيراً بينما وثاق الفكرة وقوة حقيقتها يعتمدان على ترابط باطنى. إذن الفكر فى عالم الظاهر لابد أن يكون علائقياً وهو – كما يقول برادلى – ينتحر إن توقف عند ذلك(١٣١)، لكن أيضاً كونه علائقياً على هذا النحو إنما يعمل على إعاقة الوصول إلى الحقيقة.

ولقد وُجد أن برادلى يحكم على العلاقات بنوعيها بالتناقض ويدا ذلك فى قوله «كل العلاقات تتضمن تناقضاً»(١٣٢)، وواضح أن الحكم هنا حكماً عاماً ينطبق على كافة العلاقات، ويصرح برادلى بهذا الأمُر فى قوله «كل العلاقات الخارجية تُعد

١٣٠– رودلف متس: الفلسفة الانجليزية فى مائة عام، ترجمة د. فؤاد زكريا، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ ص٤١٧.

١٣١– AR.: p. 150.

١٣٢– Bradley: "Collected Essays". vol. 2. Clarendan press. Oxford, 1935. p. 630.

جوانب فاسدة، ولكن العلاقات الداخلية ليست أفضل فلا تزال محتفظة بظواهر وحدود علاقات، وفى النهاية تظل المشكلة باقية على أساس أن أى نظرة علائقية تتضمن التناقض فى ماهيتها(١٣٣)، وبناء عليه، إذا تضمن الفكر خاصية العلاقة فإنه لا يتلائم مع الحقيقة، فالحقيقة ليست علائقية ولا توجد بها تجربة علائقية من أى نوع(١٣٤).

يحدد برادلى تصنيفاً آخر للعلاقة بوصفها نوعاً من التجريد، فيقرر أن العلاقة تعد خاصية لوجود الفكرة فحسب دون جانبها الواقعى، وهذا يؤدى إلى وجود انفصال بين الفكر والوجود يقود بدوره للتجريد(١٣٥). يناقش برادلى هذه الرؤية من خلال علاقة الحكم بالفكر، فالحكم يتألف من أفكار تصف الحقيقة وتؤكد واقع معين، وما هو مؤكد ليس فقط تصوراً عقلياً وإنما لابد أن يتحقق على نحو تجريبى من خلال واقعة ما، «فالمحمول ليس فكرة أو واقعة داخل رأسى فقط بل يجعله الحكم مرتبطاً بواقعة فى الخارج(١٣٦)، وبناء على هذا يصير الحكم مركباً من الحالة الذهنية وكذلك من العالم الخارجى، فالحالة الذهنية تتمثل فى الصفة أو المحمول أو ما what، والعالم الخارجى يظهر فى الموضوع أو هذا that. وعندما يصف الحكم الواقع فإن ما يقوم به هو إضافة فكرة جديدة إليه، حيث يحدث تخارج للصفة من وجودها الخاص لتتحد مع الموضوع الكائن فى هذا الواقع، لكن الفكرة لها كيان محدد عندما تكون مضموناً فقط أو فكرة خالصة، وإذا كانت كذلك فإنها تصير تجريداً قائماً فى العقل فقط دونما توجه للتحقيق الفعلى وهذا من شأنه إعاقة إصدار الحكم.

١٣٣- ibid:

١٣٤- ibid: p. 638.

١٣٥- ibid:

١٣٦- AR: p. 144.

٤٤- تقودنا مشكلة الموضوع والمحمول إلى مشكلة أخرى هى الصلة بين الفكر والواقع، فيرى برادلى أنه يوجد نموذج بشأن اتحاد الجانبين يظهر فى هذين التساؤلين: ما الشئ الذى تشير إليه الفكرة؟

ما المعنى الذى تقصده الفكرة بخصوص الشئ؟

يقرر برادلى أن الفكر والوجود جانبان متمايزان لا يمكنهما أن ينفصلا، ويعد الهدف الأساسى للفكر هو تحديد الصفة المناسبة التى تضم إلى الموجود من خلال الحكم، وحين يحدث هذا الأمر ترتبط الفكرة بالواقع الفعلى actual وتظهر فى الإحساس sensation أو فى الإدراك الحسى perceptien، يقول برادلى «الصورة العقلية يمكن أن تكون واقعة ناشئة مثل أى شئ واقعى حيث تكون الفكرة جزءاً من مضمون أى واقعة»(١٣٧) . وبناء على هذا يرفض برادلى أن يكون الوجود صفة يمتلكها الموضوع ويهاجم الميتافيزيقيين الذين يزعمون أن الوجود لا يختلف عن أى صفة كالإحمرار والشكل وعدم القابلية للنفاذ، وبالتالى يكون الوجود لديهم قائماً فى أفكارنا ولا اختلاف بينها وبينه. ينتقد برادلى هذه النظرة ويدعو إلى التمييز بين الفكر والواقع لا إلى الفصل بينهما، وهو يستند فى هذه الدعوة إلى رؤيته عن اختلاف وائتلاف الموضوع والمحمول.

وتتوطد الصلة بين الصدق والفكر بسبب أن الصدق مادة الفكر وهدفه تعديل الوجود ووصف الحقيقة حتى تظل قائمة فى الوجود. الصدق أيضا تأكيد على وجود مضمون متناسق يلغى التناقض والتنافر، وهذا يؤدى إلى نتيجة هامة هى أن الصدق يجمع بين مثالية الفكر idealilty وتجريبية الوجود.

١٣٧- ibid: p. 144.

الصدق إذن هو نوع من التفكير، ولقد أقر برادلي أن الفكر يمثل محمولاً عقلياً قائماً في «ما» يختلف عن الموضوع «هذا»، ولذلك يحمل الفكر في ذاته خاصية الاختلاف عن الوجود، وبالتالي لا يمكن له إلا أن يكون عقلياً. إن الفكرة العقلية تتمايز بطبيعة الحال عن الواقعة، لكن الواقعة ليست مجرد مادة تجريبية مصمته لا روح فيها، ولذلك لابد أن ترتبط بما هو عقلي أو بفكرة، فالوقائع التي ليس لها جانب عقلي تبدو بصعوبة واقعية كأن تتمثل في مشاعر بدون تحقيق، أي بدون ارتباط المضمون بواقعة تعبر عنه، حيث يكون المضمون في هذا الحال مجرد شئ خاص وفردي لا يشير إلى موضوعه المعطى، إنما يضطر أن يقف خلفه وهذا يشبه وصف شئ من الخارج دون الولوج إلى المضمون. وإذا حدث هذا الأمر يتم استخدام مضمون منفصل عن وجوده الواقعي، بيد أن هذا الفعل ليس أمراً سيئاً، إنه تعبير عن طبيعة الموجود المتناهي دائمة التغير، فالطبيعة الأساسية للمتناهي هي أنه كلما ظهر بنفسه كلما اختفت صفته خلف حدود وجوده، لكن استمرار هذا الانفصال لا يؤدي في النهاية إلى شئ، إنه وجود وليس بوجود وفكر وليس بفكر، إنه أشبه بهيولي تعبر عن شئ غير مؤكد. لكن برادلي يدعو إلى القيام بفض هذا العناء «ومعالجة تلك الجروح»، والذي يقوم بهذه المهمة هو الصدق عندما يرتبط بالفكر حيث يقبل الصدق بلا تحفظ المثالية أو الفكر الذي ينظم الواقع حين يفرض عليه الاتساق والعلو والتوافق حيث يقوم الفكر بمحاولة إيجاد الكمال والدوام عليه(١٣٨)، وهنا يتوافق الموضوع مع نفسه ومع المحمول على أساس أن كليهما يمثلان كلاً يتحقق في أي لحظة وهو في نفس الوقت يعتبر نفسه جزءاً من الحقيقة.

١٣٨- ibid: p. 138.

إذن الصدق خاصية تمتلكها الحقيقة، وهى تفرضه على الوجود بطريقتين: إما على نحو فردى بتخصيص واقعة محدودة لشخص معين، وإما على نحو عام حين تشترك الموجودات فى التوجه نحو صدق واحد.

٤٥- يتحدد رفض برادلى لانفصال الفكر عن الوجود فى الجوانب الآتية:

(٤٥-١) لا يقتنع برادلى بفكرة الأشياء فى ذاتها لأنها لا تقرر وجود شئ، وهى إن تحدثت عن شئ، فلا نعرف طبيعته(١٣٩)، كذلك يرفض حتى أن نفكر فيها، وسبب رفضه لهذه الفكرة هو تأكيده على أن الفكر لا ينفصل عن الوجود فلا يمكن التفكير فى شئ خارج الفكر أو نستدل على وجود شئ فى ذاته لأنه لا يوجد تماماً.

(٤٥-٢) عندما يقوم الفكر بفاعلياته لا يمكنه أن يتخطى ثنائية الموضوع والمحمول، فالرغبة حتى فى تجاوز الثنائية إنما تدفع الفكر كى يُقْدِم على الانتحار، فأى حكم لابد أن يوجد به موضوع أصلى هو الواقع حيث يتحد دائماً مع المحمول، وهنا يكون المحمول صفة. كذلك فى كل حكم لابد أن توجد واقعة وصدق، وفكر ووجود، الفكر والصدق ليسا هما نفس الشئ ولكنهما جانبان لنفس الشئ، فالفكر يحمل مضموناً مثالياً للموضوع، والمسألة الهامة هى أنه فى أى حكم لا يمكن أن ينفصل موضوعه عن محموله أو لا يوجد جانب فى موضوعه خارجه وغير مرتبط بالمحمول.

(٤٥-٣) يتساءل برادلى هل ثمة فارق فى الأهمية بين الموضوع والمحمول؟

١٣٩- AR: P 147.

فإذا كان الموضوع مثل المحمول فهل يصعب على الشخص إصدار الحكم ؟ وإذا كانا مختلفين فكيف يكون اختلافهما ؟

إن إعلاء أحدهما على الآخر يعني عدم وجود حكم على الإطلاق، وكل ما يوجد هو إدعاء بنوع من التفكير بدون الفكر نفسه، وهذا يؤدى إلى التناقض، ويبين لنا برادلي في جدل شديد الصعوبة حدود وقوع الفكر في التناقض نتيجة انفصاله عن الوجود، ويسلم في البداية بالمقدمة «ليس الموضوع واقعة خالصة بدون الصفة، أو ليس هو وجوداً بلا صفة»(١٤٠)، كذلك يسلم بأن الموضوع متمايز عن المحمول من حيث الماهية أو بعبارة أخرى الفكر مختلف عن الوجود، ونتيجة لهذا فأى حكم بخصوص شئ ما واقعي لا يوجد محموله ناقصاً في موضوعه، أو يغيب جانب من جوانب محموله، وهذا يعني أن الموضوع يرتبط بالمحمول جزئياً فقط بسبب غياب جزء وأدى هذا الغياب إلى عدم التحديد الدقيق، ولذلك إذا ارتبط الفكر بالوجود جزئياً لن يفلح هذا الفكر ويتوجه إلى التناقض، فالواقع موضوع الفكر برمته وليس على نحو جزئي اعتماداً على المبدأ القائل إن الفكر الذي يدرك الجزء بدلاً من الكل هو فكر ناقص متناقض. وبناء عليه فأى حكم يؤكد على وجود ما، فإن هذا الوجود المتأكد إنما هو نموذج كلي بالنسبة للحكم نفسه حتى لو كان الحكم بخصوص كيان نوعي في الوجود على أساس أن هذا الكيان لا ينفصل مطلقاً عن بقية أجزاء الوجود، ولذلك يرتبط الموضوع بالمحمول ارتباطاً كلياً، فلا فكر خالص يحدد فكراً خالصاً ولا موضوع محض يحدد موضوعاً محضاً، إذن الموضوع والمحمول أو الوجود والفكر لابد أن يكونا متضايفين رغم كونهما متمايزين.

١٤٠- AE: P. 149.

(٤٥-٤) الفكر والوجود إذن مرتبطان رغم تمايزهما ورغم كل التناقضات التى يقع فيها الفكر الانتقالى، لكن ما يمنع التناقض ويقلل من حدة التمايز هو مستوى الكمال الذى يسعى إليه الفكر، فما سبق بيانه يمثل عند برادلى فكراً ناقصاً، أما عندما يكتمل الفكر و يتحقق سيتم القضاء حتماً على أى تناقض بين الموضوع والمحمول، وسنجد نسقاً متناغماً لمضمون يؤكد ذاته باستمرار، سنجد موضوعاً للوعى داخل نسق المضمون، وهذا ما يسعى إليه الفكر، وهنا يلتحم الوجود مع الفكر ويشفى من انقسامه، فإذا لم يكن هذا الكمال فى حدود الواقع الآن، فإنه على الأقل فى حدود الإمكان(١٤١).

٤٦- الحقيقة إذن لا تتناقض مع الفكر لأنها هى نفسها نتاج الفكر، لكن إن حدث تناقض فإنه يتم فى الظاهر فقط بل ويكون فى جزء من الظاهر، وهذا يؤدى بطبيعته إلى إعاقة الصدق. يقرر برادلى أن الصدق يتحقق حين يجتمع الفكر والحقيقة فى المطلق الذى يضم كافة عناصر الحياة، وهى العناصر التى تجاهلها عدد من الميتافيزيقيين، هذه العناصر مثل الإرادة والشعور والرغبة، وعند هذا الحد يتوقف الفكر العلائقى لكى يبدأ فكر صادق وحقيقى ويسعى إلى الكمال(١٤٢)، هذا الفكر الصادق هو فى حقيقة الأمر نسق يتسق فيه الداخل والخارج، ويضم كافة عناصر الوجود الإنسانى فى وحدة متناغمة، إنه حقيقة تضم مشتملات كثيرة، ولذلك يتوصل برادلى إلى أحد أهم دعائم الحقيقة والفكر المتمثلة فى الشعور القائم على تجربة مباشرة صحيحة دائماً، فيقول «الشعور ينتمى إلى الفكر المتكامل، فإذا لم يتم هذا

١٤١- AR: P. 150.

١٤٢- Wollheim: Bradley, p. 188.

الانتماء فإنه يوجد فى جانب من الوجود وراء الفكر، ولكن بتوحد الشعور والفكر الكامل يتوقف التفكير العلائقى، ولذلك من أجل أن يشمل التفكير التجربة المباشرة لابد أن تتغير شخصيته،(١٤٣)، وبذلك يُعلى برادلى من شأن تلك التجربة الشعورية الفكرية التى نحتكم إليها باستمرار، وهذه التجربة تشمل الفكر وسائر العمليات العقلية الراقية ولذلك يمكنك أن تطلق عليها «تجربة شعور أو إرادة، كلاهما متساو»(١٤٤). وهكذا عندما يتجاوز الفكر العلاقة فإنه يستوعب كل عناصر الوجود حتى ما يفصله عن الشعور والإرادة لأنه يمثل خبرة لديه، «ففى المطلق نحتفظ بكل جملة خاصة بتجربتنا، فلا يمكننا فيه أن نحصل على القليل، بل على الكثير، وهذا الكثير هو الذى يمدنا بعناصر تجربتنا الفعلية حيث تتشكل هذه العناصر من جديد. ولكى نصل إلى أسلوب للفهم يتناسب تماماً مع الواقع لابد أن نجد الموضوع والمحمول والذات والعالم جميعاً فى توحد داخل الكل، إذ يضم هذا الكل فى أعلى صورة تلك المباشرة الموجودة فى الشعور، وفيه سوف تتوقف الانقسامات، حيث يصبح تجربة تامة شاملة لكل العناصر فى تناغم واتساق، أما الفكر فيكون حضوره متمثلاً فى حدس سام حيث يصير العقلى واقعى وحقيقى ويحيا الجمال والسعادة والشعور بالتكامل والتوافق فى أتم وجه، فإذا اتحد الصدق والحقيقة معاً، فإن الفكر لابد أن يصل إلى كماله»(١٤٥).

ويؤكد برادلى على نفس المعنى فى فصله «درجات الصدق والحقيقة» من كتابه الظاهر والحقيقة فيقول «إن افتراض فكر خالص بدون وقائع ويكون حقيقياً ويصل

١٤٣- AR: p. 151.

١٤٤- ibid.

١٤٥- ibid: p 152.

إلى الصدق إنما هو من قبيل العبث، إن سلسلة الأحداث ضرورية لمعرفتنا طالما تغذى هذه السلسلة مصدر كل مضمون عقلى»(١٤٦).

ويقول فى موضع آخر «بدون الوجود ندرك الفكر ناقصاً»(١٤٧)، وفى موضع ثالث «الفكر المحض يعنى مضموناً عقلياً منفصلاً عن الوجود، ولذلك لابد أن يشير الفكر دائما إلى الواقع حتى لو كان ضد إرادتنا، وهنا ترتبط فكرتنا المحضة – الداخلة فى علاقة مع الواقع – مع نسق الأحداث الظاهرية فى الزمن»(١٤٨)، وفى موضع رابع «كل حقيقة يجب أن تكشف عن نفسها فى عالم الأحداث وهذا العالم أقصى ما يكونه الواقع(١٤٩). كذلك يعبر عن رؤيته بمثال فيقول «الدولار المتخيل فكرياً فقط يكون مجرداً على نحو نسبى وخالٍ من الصفات، ولكن الدولار المتحقق فى المكان قد حصل على وضعه وتحدد عن طريق بناء ضخم من الأشياء»(١٥٠).

بناء على ما سبق نتوصل إلى ثلاث خصائص تميز الفكرة عند برادلى أولها: أنها موجودة exists بوصفها صورة ذهنية قائمة فى العقل الخاص بفرد معين فى وقت محدد، وثانيها: أنها تدل على شئ مختلف عنها، وثالثها تأكيد برادلى على أن الأفكار بوصفها معان meanings تختلف عنها كصور ذهنية image، إذ تمثل المعانى كليات متواجدة لدى عقول كثيرة، أما الصورة الذهنية فهى جزئيات موجودة فى العقل فى زمن محدد.

١٤٦- ibid: p. 337.

١٤٧- ibid.

١٤٨- ibid.

١٤٩- ibid.

١٥٠- ibid.

١١ - درجات الصدق والحقيقة

٤٧- توجه برادلى إلى نظرية درجات الصدق والحقيقة من أجل تدعيم موقفه الميتافيزيقى فى رؤيته للصدق، وتعتبر هذه النظرية رؤية معتدلة للواقع والحياة التى نحياها حين نتأملها فلسفياً، فكل شئ منتظم فى المطلق بوصفه نسقاً عاماً يضم كافة الأحوال الكونية فى وحدة وتناسق مقدر وانتظام أبدى، وهذا النظام هو بطبيعة الحال القانون الكونى - أى يمكننا النظر إلى المطلق بوصفه هذا القانون - فكل شئ فيه منتظم حتى ولو كان خطأ، إنه نظام المبادئ العامة والوجود بأسره، إنه على اتصال دائم بنا، رغم أنه ليس فى متناول أيدينا وليس لنا قدرة فائقة على معرفته، لكننا نعرفه فقط من خلال عالمنا الواقعى الحسى، عالم الحياة اليومية والتجربة الحسية، ففى عالمنا نجد الأشياء منتظمة بشدة أو بضعف، وحدود معرفتنا للعالم ليست كاملة فى كل جوانبها إنما هى متدرجة أى ذات درجات، فمثلا لا نعرف كافة القوانين العلمية فى الكون لسببين الأول: أننا ليس لدينا القدرة على شمول كل جوانب المعرفة الكونية لأننا موجودات متناهية، والثانى: أننا وفقاً لنظرية الدرجات نعرف ما يهمنا بدرجات أكثر مما لا يهمنا، فنحن فى الفلسفة لا نحتاج إلماماً بكل قوانين الفيزياء أو البيولوجيا، إنما نحتاج ما يهم دراستنا فقط، إذن نحن نحيا فى «عالمنا» أو بعبارة أدق فى العالم المتاح لنا.

٤٨- واجهت النظرية انتقادات شديدة ولا سيما على يد رسل ولكن لم تكن كل انتقاداته هادمة للنظرية، إنما حاول أن يبين جوانب التناقض فى نظريات برادلى الغامضة والصعبة. ولقد لاقى نقد رسل للنظرية قبولاً واسعاً من الأوساط الفلسفية أنذاك وإزداد تدعيماً عن طريق الأساليب المنطقية الجديدة الناجحة التى طورها رسل

فى كتابه «أصول الرياضيات»، وكذلك عن طريق المناطقة أنفسهم ومنهم تارسكى ونظريته فى الصدق، حيث توصل هؤلاء جميعاً إلى أن درجات الصدق لم تقدم أى تطورات جديدة، أما رامزى فلغى تماماً درجات الصدق والاعتقاد ورأى أن النظرية لا معنى لها(١٥١). كذلك انتقد ماكتجارت هذه النظرية فى جانب الحقيقة وليس الصدق حين رأى أن الحقيقة تمثل كلاً شاملاً للقوة والضعف، فلا يصح أن نقول إن الشئ أكثر حقيقة من غيره، فالوجود الحقيقى ثابت سواء بذل س مجهوداً مضاعفاً أكثر من ص أو لم يبذل(١٥٢).

٤٩- تهدف نظرية درجات الصدق والحقيقة إلى بيان أنه لا يوجد صدق مطلق ولا كذب تام، فالقضية الكاذبة لا تثبُت على نفس الكذب، إنما تتوجه إلى الصدق بالتصحيح والتعديل، وهى لا تكون صادقة صدقاً مطلقاً، لأن هذا النوع من الصدق ليس فى حدود قدرتنا المتناهية، وإنما هو صدق له حدود معينة حيث تحصل القضية على درجة ما من الصدق تؤهلها للوصول إلى الحقيقة، وهذا يعنى أن المرء لا يقول كل شئ عن أى شئ، بل يقول نسبة محددة من المعرفة هى نفسها مصاغة فى قضايا ذات نسبة محددة أيضاً من الصدق والخطأ، وبالتالى يتم الحصول على قدر من الصدق فى هذه اللحظة أكثر من اللحظات الأخرى، أو يتم الحصول على العكس، وبذلك تتحدد أمامنا هذه القضايا:-

---

١٥١- J. Allared: "Degrees of Truth in F.H. Bradley", An Essay in "Perspective on the logic and Metaphysics of Bradley", ed. by W.J. Mander, Thoemmes press, Pristol. England. 1996. pp. 137- 134.

١٥٢- J.M.E. McTaggart: The Nature of Existence. Cambridge University press. 1988. p. 4.

أ- لا توجد قضية صادقة صدقاً مطلقاً.

ب- لا توجد قضية كاذبة تماماً.

جـ- لا توجد قضية ليست صادقة وليست كاذبة وهذا يؤدى إلى رفض فكرة الأفكار الشاردة.

د- كل القضايا صادقة بدرجات نسبية.

وبهذا يتحدد الهدف الأساسى من النظرية فى القول إن جميع القضايا بها درجات معينة من الصدق إذا زاد فإنها تقترب من الحقيقة وإن قل زاد بعدها عن الحقيقة.

٥٠- بدأ برادلى النظرية فى كتابه «مبادئ المنطق» ثم طورها فى إطارها الثابت فى كتابه «الظاهر والحقيقة» فى فصل كامل عنها.

يرى برادلى أن نظرية الدرجات تُطبق فقط على الأحكام الصادقة دون الكاذبة فلا توجد درجات للخطأ(١٥٣)، ويستخدم لفظ "Truths" أى الحقائق الصادقة بالتبادل مع الأحكام الصادقة True Judgments(١٥٤). ويرجع السبب فى نسب درجات الصدق والحقيقة للأحكام الصادقة فقط إلى نظريتيه للمطلق والظاهر والحقيقة، فيحدد مقدمة أساسية هى أن «المطلق ليس به درجات لأنه كامل ولا ينطبق عليه القول إنه أكثر كمالاً أو أقل»(١٥٥).. فالمطلق يضم كثرة من الحقائق، جميعها صادقة بطبيعة

١٥٣- PL: Vol 1, p. 197.

١٥٤- AR: p. 320.

١٥٥- ibid: p. 318.

الحال على نحو نهائى، وبالتالى فإن مضمون المطلق لا يصح أن ينطبق عليه القول أكثر أو أقل صدقاً. أما النظرية الثانية عن الظاهر والحقيقة فتفجر قضية غريبة وهى أن الدرجات تنطبق فقط على الظاهر وليس على الحقيقة، بسبب نقص الصدق فى أحكامه أو ارتفاع درجة الكذب به، ولذلك فثمة أحكام ظاهرية معينة تقبل التعديل ومن ثم تقترب من الحقيقة تدريجياً وفقاً لارتفاع درجة الصدق المتوالى بها، وبناء على هذا يتحدد وجود درجات الصدق فى عالم الظاهر ويخص الأحكام الأقل كذباً وأكثرها صدقاً، ولكن صدق هذه الأحكام لا يكفى لكى تكون حقيقية، ولهذا السبب تقوم بالسعى للاقتراب من الحقيقة، لكن الحقيقة نفسها لا توجد بها درجات وليست خاضعة للدرجات، فلا يصح القول إن الحقيقة أكثر أو أقل درجة، إنما الحكم هو الذى تنطبق عليه الدرجة باشتراط جانب الصدق فيه، فنقول إن القضية بها نسبة معينة من الصدق تقترب بمقداره إلى الحقيقة، أو القضية بها نسبة من الحقيقة بقدر درجة صدقها، إذن درجة الصدق هى التى تحدد لنا درجة الحقيقة أو أن درجة الصدق تحدد البعد أو القرب من الحقيقة، فكلما زاد الحكم فى الاقتراب من الحقيقة زادت نسبة صدقه والعكس صحيح.

٥١- يعرض برادلى أربعة أنواع للأحكام لها علاقة بدرجات الصدق والحقيقة أولها الحكم الواجب أو الحملى categorical، وهو حكم لا تنطبق عليه الدرجات مطلقاً لأنه غير كاف لتحديد الصدق ولذلك يرفضه برادلى من تصنيفه(١٥٦) ويتوجه إلى

١٥٦- PL: p. 103.

وأيضاً AR: p. 320.

النوع الثانى من الأحكام وهو الحكم الشرطى Conditional ويرى أنه حكم يقبل الصدق استناداً إلى التقرير أنه لو كانت المقدمة فى الحكم الشرطى قوية وصحيحة كانت جملة جواب الشرط أو النتيجة صادقة(١٥٧).

ولكن كيف يقود الحكم الشرطى إلى درجات الصدق والحقيقة؟ يرى برادلى أن الحكم الشرطى غير كامل لكنه يقبل التعديل وبه جوانب صادقة عكس الحكم الواجب، فالنتائج ليست هى وحدها المشروطة ولكن أيضاً المقدمات، وطالما أن المقدمة شرطية فإن النتائج سوف تعاد مرة تلو الأخرى إلى ما لا نهاية، ولذلك سوف يتضمن الحكم الشرطى جوانب نقص الأمر الذى يجعل صدقه غير كامل، وهذه الحجة تضعف الحكم الشرطى وبالتالى يحتاج بالضرورة إلى معيار درجات الصدق(١٥٨).

النوع الثالث من الأحكام هو نوع فريد ويهدف به برادلى إلى عدم رفض الحكم السالب تماماً فيقول «كل حكم سواء كان سالباً أو موجباً لابد له أن يحقق صفاته الخاصة ويبرر الوقائع»(١٥٩)، وهذا يعنى أن الحكم السالب يمكن أن يكون صادقاً وأن يعبر عن واقعة صحيحة على الرغم من وجود تناقض فى حدوده، فإذا قلنا «الرجل الصادق ليس كاذباً» أو «هذا الرجل ليس مدخناً» فقد حكمنا حكماً سالباً صادقاً على الرغم من تنافر حدوده، أى أن خاصية الصدق فى هذا الرجل لا تجتمع مع خاصية الكذب أو خاصية الرجولة لا تجتمع مع خاصية التدخين، ولكن مع هذا فالحكم يقرر حقيقة صادقة حيث لا يؤثر التنافر القائم بين الحدود على الحكم أو فى الواقع.

١٥٧- AR: p. 320.

١٥٨- PL: p. 104.

١٥٩- AR: p. 323.

أما النوع الرابع فهو يمثل أحكاماً شاملة لا تخص المطلق إنما تخص عالم الظاهر، وتعنى أن الحكم يشمل معطيات معينة تنطبق على جزئيات متعددة فى العالم، غير أن هذا النوع من الأحكام لا يشمل كل معطيات العالم بل يشمل فقط ما هو مقدر له ولذلك يستدعى هذا التخصيص درجات الصدق من حيث درجة شمول الحكم أو اتساقه، وكذلك نسبة انطباقه على أحوال كثيرة تتناسب معه، وطالما أن أحكامنا موضوع درجة إذن فهى لن تصل إلى الصدق المطلق بل تكون قانعة بحصولها على قدر من الشرعية سواء قليل أو كثير(١٦٠). إذن قد يبدو أن للأحكام خاصية وشكل الصدق المطلق لكنها لا تكونه أبداً بسبب حصولها على درجات صدق معينة، إنها – كما يقول برادلى «تعتبر تمثلات للمطلق وفقاً لدرجة الصواب والخطأ التى يحددها وجودنا المتأثر بنسبة كبرى أو صغرى من الاضطراب(١٦١).

بناء على ما سبق نستنتج أن برادلى حاول فهم الواقع بأسلوبين متعادلين هما أسلوب واقعى متأثر فيه بالاتجاه التجريبى الإنجليزى سواء فى تراثه أو فى معاصريه، والإسلوب الثانى هو مزاجه الفكرى الذى جعله يميل إلى الاتجاه المثالى، ولذلك فقد وضع فى اعتباره طبيعة العالم الخارجى والسلوك الإنسانى من جانب ووضع ميتافيزيقاه فى الجانب الآخر، فنحن بالفعل نمتلك قدراً من الإطلاق فى أحكامنا فى هيئة مبادئ ومعايير وإن كنا لا نعرف كل مشتملات المبدأ وتطبيقاته الجزئية بسبب حدود قدرتنا التى يتناسب معها ما هو متاح لنا ولذلك يقول برادلى «أحكامنا تظل

١٦٠- ibid: 321.

١٦١- ibid

صحيحة وفقاً للمعيار الحقيقى الذى تتفق معه ولم تنحرف عنه، بعبارة أخرى تصدق الأحكام بنسبة إهتدائها إلى الحقيقة،(١٦٢) .

٥٢- لم يقل برادلى أن للخطأ درجات، مع أن رؤيته فى إمكانية التعديل تبين ذلك على أساس أن الحكم الأقل خطأ أكثر صدقا والعكس، ولكن حقيقة الأمر تقرر غير ذلك بسبب أن الخطأ عند برادلى لا يجزأ نتيجة جانب التحديد والتخصيص فى الحكم فحين نصدر حكما فإننا نصدره بكليته، ولذلك يجب أن نقول إن الحكم إما أن يكون صادقاً أو كاذباً ولا ثالث بينهما، كذلك لا نقل أن به درجة خطأ أقل، فلقد جعل برادلى درجات الصدق منسوبة فقط للصدق أو للحكم الصادق فقط. لكن المشكلة التى أدت إلى تأويل أن للخطأ درجات هى أن الحكم قد يكون صادقاً تماماً وبلا أى خطأ لكن صدقه لا يؤهله للوصول إلى الحقيقة، والسبب واضح منهجياً، نتيجة مبدأى الشمول والاتساق، فهذا الحكم برغم صدقه إلا أنه ليس شاملاً أو قابلا لأن يكون مشمولاً فى نسق، أو ليس متسقاً تماما مع بقية الأحكام الأخرى.

وبناء على هذا لا يوجد صدق مطلق فى عالم الظاهر لأن هذا الصدق المطلق شامل ويتضمن سلفاً وخلفاً كل ما هو موجود بل وكافة جوانب الكون ويميزه برادلى بانتسابه إلى الميتافيزيقا، ولذلك فهو يقرر أن الصدق المتاح لنا فى عالم الظاهر هو ما يمكن أن نطلق عليه بتحفظ شديد «صدقاً نسبياً»، ونسبيته آتية من كونه لا يصدق ولا يكذب على نحو تام(١٦٣)، إن المسألة هنا موضع «مقدار»، فأفكارنا تكون صادقة

١٦٢- ibid.

١٦٣- الصدق التام والكذب التام منسوبان للحكم وليس للصدق.

لغرض ما وكاذبة لغرض آخر(١٦٤)، ويرُد عدم تمام الصدق والكذب إلى جانبين: أولهما أن أحكام الظاهر ليست دائماً تامة، وهى فى بعض الأحيان غامضة بسبب عدم الاكتمال(١٦٥)، أما الجانب الثانى فهو أن الصدق والخطأ يتم قياسهما عن طريق المطلق، وهذا يعنى أن الحكم الذى يسعى إلى المطلق هو ما يكون صادقاً حتى لو كان الصدق نسبياً، أو يكون صادقاً بعد التأهيل والتصحيح، بينما الخطأ أو الحكم الخطئ هو ما يظل على حاله دون تعديل، ويؤكد برادلى على هذا بقوله «لا يمكن لأحكامنا أن تحوز الصدق التام بل لابد أن تقنع بشرعيتها سواء كانت هذه الشرعية قليلة أو كثيرة»(١٦٦).

ومن الواضح هنا أن النسبية المتصورة عند برادلى ليست منسوبة إلى الصدق وإنما إلى الحكم الذى يقدر صدقه بدرجة معينة، ولذلك فمن الأفضل ألا نقل «الصدق النسبى» إنما نقول الحكم الذى يصدق على نحو نسبى، أو الحكم الذى به قدر معين من الصدق الذى يحدد درجة اقترابه من الحقيقة، لأننا لا يمكننا القول «الصدق الأقل صدقاً» إنما نقول «الحكم الأقل صدقاً»، لكن قلة الصدق لا تعنى ازدياد الخطأ، فالخطأ أو الحكم الخطئ هو كذلك برمته، إنما الحكم قليل الصدق بسبب درجة بعده عن الحقيقة.

٥٣- تعتمد درجات الصدق على معيارى الشمول والاتساق على أساس أن منح درجة صدق لحكم ما تستلزم أن تستند إلى مرجعية مدعومة، فلابد أن يكشف الصدق

١٦٤- ibid.

١٦٥- Allared: Degrees of Truth in F.H.Bradley, p. 145.

١٦٦- op. cit.

عن خاصيتى الانسجام الداخلى والشمول، وهما خاصتان تشكلان أساسين لمبدأ واحد هو المطلق، وقد أطلق برادلى على هذا المطلق اسم «المتفرد» ويعنى أنه الحقيقة النهائية الكلية الشاملة all inclusive.

وبناء على هذا فكلما إزداد الحكم فى توافقه مع المطلق، كلما فقد تنافره أثناء سير العملية وأصبح متسقاً تماماً، إذن فتمام الصدق يتمثل فى حكم صار حقيقياً نتيجة شموله لأحوال كثيرة ينطبق عليها بالفعل، واستوجب هذا الشمول اتساق الجوانب المشمولة، أما الأحكام الناقصة فهى أقل شمولاً واتساقاً، ونتيجة لاستخدام هذين المعيارين يمكننا أن نعيد بناء أحكامنا التى ندخلها فى نظام خبرتنا. وعلى الرغم من أننا قد لا نتمكن من إعادة التجربة حسياً إلا أننا يمكننا أن نصل بالفكر إلى وحدة منظمة مرتبة، حيث تنتظم أحكامنا بمجرد دخولها فى خبرة واحدة هى خبرة المطلق(١٦٧).

إذن محاولة برادلى فى عملية تحديد معيار درجات الصدق هى عبارة عن محاولة لإيجاد توازن مع الحقيقة، فالأحكام الصادقة أكثر اتساقاً وشمولاً، ولكن الذى ينزع الحكم من الواقع هو خاصية التجريد، أى الافتقار إلى التحديد، وحالما تصبح الأحكام متسقة وشاملة لن تختلف عن الحقيقة بل ستكون هى نفسها الحقيقة. وهكذا تقوم معايير برادلى الثلاثة وهى درجات الصدق والحقيقة والاتساق والشمول بتشكيل نظريته فى الأحكام التى تؤكد على وجود هوية أو مماثلة بين الصدق والحقيقة.

١٦٧- Ferreira:p. 139.

٥٤- يحدد برادلي عدة جوانب لتطبيق المعايير الثلاثة التي هي الشمول والاتساق ودرجات الصدق والحقيقة ولابد أن نتنبه إلى أن المعيارين الأوليين يتحددان من خلال معيار الدرجات وهذه الجوانب هي:

(٥٤-١) تقدير مقدار واقعية وصحة أي ظاهرة في زمن ما يجب أن يضع في الاعتبار مدى انسجامها مع الحقيقة ومقدار انسجام مضمونها نفسه اعتماداً على ضرورة فرض الترتيب وإعادته وبيان المحتويات التي تثبت من التي تُقصى وقدرة اتساقها مع بقية المحتويات. كذلك يجب أن يوضع في الاعتبار سير الزمن وامتداد المكان والموضع الذي تحتله الظاهرة، وكذلك تحديد مدى انتشار أشياء أخرى معها، وبهذا يمكن معرفة ما إن كانت أكثر اتساقاً وشمولاً مع جيرانها أو أقل(١٦٨).

(٥٤-٢) يرتبط المعياران الأوليان بالقوانين من حيث التجريد والواقعية، فالرياضيات مثلاً نموذج للحقائق المجردة بينما يتقابل معها جوانب حياتنا الواقعية والعقلية، وكلا الجانبان يقيمان حججاً لتدعيم نفسيهما، لكن هذا التدعيم الأحادي الخاص بكل منهما لا يقيم معرفة، فالأول بعيد عن الواقع والثاني ضيق الأفق، وكلاهما أقل صدقاً، فالقانون الأكثر تجريداً يتناقض ذاتياً لأنه متعدد التطبيق، أما القانون الأكثر قرباً للحواس فهو يضم جوانب منفصلة، وهو نفسه يكون أكثر تنافراً واختلافاً، ولذلك فوجود النقص في هذين الجانبين يعني العجز عن بلوغ الكمال، إذن الصحة والصدق يتحققان بتجاوز التجزئة والانفصال والتمسك بالجوانب المتعالية في الكون، ونحن في حياتنا اليومية نتجاوز على الدوام الانفصال بين المبدأ

١٦٨- AR: P. 328.

والواقع(١٦٩)، ولذلك فالمبادئ بدون تطبيق هى تجريدات لا فائدة منها، كذلك لا يمكن تحقيق الواقعة بدون الاستناد إلى مقوم لها.

(٥٤-٣) تتحدد أهمية وفاعلية «الحدث» أو الحكم أو القضية بقدر امتداده وانتشاره وتأثيره وشموله وتجاوزه لمنطقة حدوده الخاصة، ونحن نصل إلى أعلى مرحلة حينما يتجسد القانون والمبدأ، فالروح نموذج لجوهر متفرد بقوانينه مستمرة الوجود، والجمال يمثل شكلا من أشكال اتحاد المبدأ بالواقع، فضلا عن شمول إرادة الفرد وإرادة المجتمع لمعايير معبرة عن نفسها فى واقع خارجى. بناء على هذا يقرر برادلى ضرورة أن يكون لدينا مبدأ شامل متسق يفرض التماسك والوحدة على محتوياته ويضمن لها الانتشار والتحقيق، بعبارة أخرى ... لابد للمبدأ أن يسود الوجود بضرورة تجاوز العلاقة الشخصية للفرد بعد استيفاء غايته معها فيضم بجانب تجاربه المتعددة أفكار الخير الأقصى والحقيقة ولذلك لابد للفرد أن يقدر الجوانب المختلفة والمؤتلفة التى تناسب وضعه بالنسبة للمطلق(١٧٠).

٥٥- يرى برادلى أن الوحدة كما توجد فى الكون توجد أيضاً فينا، وكما يشكل الكون حقيقة عليا، كذلك يشكل وجودنا نسقاً فردياً متكاملاً، وبناء على هذا تظهر لحياتنا أوجه متباينة كثيرة، وقد لا توجد بها أية روابط واضحة، فالفن والأخلاق والدين والسياسة والأغراض العملية والنظرية كلها جوانب منفصلة، وهذا الانفصال طبيعى، فلا وحدة فى الموضوع بين هذه الجوانب، إنما هى مترابطة عن طريق الاشتراك فى شخصية متكاملة الأطراف، ولذلك فكل هذه التمايزات تشكل العالم

١٦٩- ibid.

١٧٠- ibid: p. 329.

الحقيقى الذى يتوحد مع النظام المكانى والزمانى، وحتى لو وجدت أنظمة غير واقعية كالخيال والمشاعر الكاذبة وما هو ضد إرادتنا، فإنها تدخل فى تنظيم عالمنا الحقيقى على نحو ضرورى.

إذن كل فكرة حتى لو كانت خيالية، إلا أنها تشير إلى الصدق والحقيقة بدرجة ما، وبالتالى تظهر للموضوع جوانب متعددة، وكثرة هذه الجوانب لا تقع جميعها فى حدود معرفتنا فضلاً عن أن كل فكرة يمكن أن تغير أحوالها وهذا يستدعى إضافة أفكار جديدة وإعادة ترتيب، وكل هذا يتطلب تحديد مقادير معينة لكل ما هو موجود. وبناء على هذا يقرر برادلى أنه لا يتعهد بتحديد كافة الجوانب المختلفة للعالم بترتيب درجاتها النسبية القياسية للصدق والحقيقة، أو كما يتساءل.... كيف يمكن أن تكون عادلاً بتحديد الجوانب والأنظمة العديدة للظاهرة؟ ولكى يقوم الفرد بتحديد الأنظمة أو حتى جزء منها مع مراعاة تجنب الانحصار الذاتى، لابد له أن يسلم بأسلوبين هامين هما قبول فكرة درجات الصدق والحقيقة، وبناء الشعور ليس فقط كمعيار للقيمة وإنما أيضاً بوصفه معياراً للصدق والحقيقة.

٥٦- بناء على ما سبق يتم التوصل إلى ضرورة توحيد النسق الفردى للذات الواعية مع النسق الكلى للحقيقة، وهذا الاتحاد يحقق الكمال والدوام، فلا يمكن أن يوجد نسق كامل وفى نفس الوقت متناه. إن بقاء النسق واستمرار وجوده يدوم بالاستناد إلى الانسجام والانتشار أو الاتساق والشمول وهما جانبان لمبدأ واحد يمتد ليشمل مساحات كبرى أقل انقساماً وأكثر تماسكاً وثباتاً، فإن قل الصدق نتيجة تجريد الفكر أو الانفصال الحسى، فبإمكاننا استعادته عن طريق ضم أجزاء الكون المتاحة فى وحدة، وتحديد مساحة الانتشار والتأكيد على تماسك الأجزاء، وحينئذ يصبح الانتشار والتماسك معيارين للصدق والحقيقة، يقول برادلى «يمكنك قياس واقعية أى شئ عن طريق المقدار

النسبى لتغييره الذى تم بتحويل عيوبه إلى جوانب صحيحة، وكلما كان الظاهر أكثر تحولاً وتغيراً من أجل التصحيح كلما أمكن للواقع أن يضم نسبة أقل من الظاهر، هذا المعيار إذن قابل للتطبيق على كل أنواع المادة الأساسية موضوع الدراسة، إذن كل شئ مباشر أو غير مباشر له مكان نسبى فى الحقيقة،(١٧١)، فاللذة والألم وتأثير المشاعر ووقائع الإدراك فى المكان والزمن وانعكاسات معطيات الحواس والرغبة والشك، وأثر الواقع الاجتماعى على الشخصية، كل هذه جوانب تعبر عن تطور الوحدة الداخلية الواقعية بوصفها تمثل فردية تُخضع العالم الواقعى لها حتى ولو لم تدركه حسياً بكل تفصيلاته، ويظهر هذا السمو فى الجوانب الظاهرية الزمنية فى الفن والدين والتأمل حيث يصبح المبدأ الداخلى أكثر شمولاً ووحدة، وكلما صار المبدأ أسمى وأكثر انتشاراً كلما امتلك روح الأشياء(١٧٢)، وهكذا يكشف برادلى فى هذا المبدأ عن قوى التحقيق فى هيئة وقائع حسية.

وبناء على هذا يقرر برادلى أننا لابد أن نتجنب خطأين هامين فى الظاهر أولهما: اعتبار الإدراك الحسى هو الحقيقة الوحيدة المعروفة، وثانيهما: اعتقاد أن الحقيقة قائمة فى فكر خالص فقط، ويرجع السبب فى تجنبهما إلى أن كل جانب منهما يحدد جزءاً هزيلاً من الحقيقة الكلية وتأكيدهما على انفصال الفكر عن الوجود.

ولذلك يتوجه برادلى نحو فكرة أصيلة بشأن اتحاد الفكر والوجود وهى أن المبادئ العليا لا تدرك بالحواس إنما وجودها فى عالم الفكر الخالص، ولكن إن

١٧١- ibid: p. 332.

١٧٢- ibid.

استبعدت منطقة المبادئ العليا من سير الأحداث المتلاحق، يتحدد الفكر خارجياً ويتناقض داخلياً، «فإذا حاولنا تعديل الكون عن طريق فكرنا المثالى وربطه بالواقع أو الإدراك الحسى، يتحول الغموض والتناقض إلى وضوح ويقين، وطالما توقف الظاهر الحسى عن تعارضه مع الفكر، أو اتحد الإدراك الحسى مع الفكر وتواجدا معاً فى المكان، فإن هذا الوضع يمثل الأساس الأولى للصدق»(١٧٣).

٥٧- نستنتج مما سبق ما يلى:

(٥٧-١) يعتبر المطلق معياراً لدرجات الصدق نتيجة شموله واتساق محتوياته، وهو برغم إطلاقه إلا أنه متاح كيما تعرفه العقول المتناهية بفروق نسبية. ونتيجة لتأكيد برادلى على أهمية الظاهر فقد نسب له درجات الصدق والحقيقة على أساس أنه يمثل حياتنا الواقعية المعاشة، وإن كان ما يسئ إليه هو تلك المعارف العلائقية التى لا تجد رابطاً وثيقاً يجمعها، وتلك الأحوال التى تثبت التناقض واللبس فيما بينها.

ولذلك فأهم عنصر من عناصر التفكير المثالى والذى نجد نموذجه واضحاً عند برادلى هو الترابط والتماسك السارى بين جميع موجودات الكون، إذ على أساس هذا الترابط يتحقق الصدق، ولكن برادلى يرى أن هذا الترابط يتحقق على نحو نسبى فى الظاهر بمعنى أن الأشياء تترابط وتتسق وتنسجم بنسبة أو بدرجة أقل أو أكثر، وهنا يتحدد قربها أو بعدها عن الحقيقة، بيد أن دخول الحكم أو القضية فى مجال الدرجة أو النسبة لا يعنى حصولهما على الصدق التام طالما أن كلا منهما يخضع للدرجة.

لكن ماذا بشأن الأحكام الصادقة صدقاً تاماً؟

لم يقدم برادلى تحليلا مفصلاً لتلك الأحكام، ولكنا استنتجناها كما يلى: يضم

١٧٣- ibid: p. 335.

المطلق أو النظام الكونى مشتملات كثيرة، فهو يضم الخطأ والصواب، الصدق والكذب الحق والباطل الجمال والقبح التناقض والاتساق، لكن الجوانب السلبية لا ينطبق عليها القول «حقيقى»، أما الجوانب الإيجابية فينطبق، وبالتالى فالأحكام الصادقة صدقاً تاماً هى أحكام حقيقية صادقة على الدوام ومن ثم فهى لا تحتاج درجات الصدق، ومن هذه الأنواع القوانين والحقائق العلمية والمبادئ الدينية والأخلاقية. أما الأحكام الصادقة على نحو نسبى فهى تحتاج باستمرار إلى درجات الصدق، ولذلك يقرر برادلى مبدأه المشهور لا يوجد صدق تام ولا كذب تام.

(٥٧-٢) بناء على هذا نتساءل مع برادلى كيف يمكن للظاهر أن يمتلك درجات الصدق والحقيقة؟ وكيف يصدق ويكون حقيقياً؟

يرى برادلى أن المطلق ليس متاحاً لنا على الدوام بسبب أننا لا نقوى على جمع كل مشتملاته نظراً لطبيعتنا المتناهية وكذلك بسبب أن هذه الإتاحة الكاملة تدخل فى نطاق العلم الكلى الذى هو فى أساسه ليس من طبيعة تلك العقول المتناهية، لكن الحالة التى يكون فيها متاحاً لنا هى الدرجة التى بها يتسق ظاهرنا معه ليحصل على قدر من الصدق والحقيقة، وهذا يتحقق عن طريق خاصية الشمول بوصفها معياراً يتحقق عن طريق تجميع مظاهر متعددة تتوحد فى ظاهر شامل يمكن اعتباره نموذجاً تتدرج تحته درجات مقارنة لظواهر أخرى تعتمد فى وجودها عليه. وهكذا يقوم برادلى بحل مشكلة الظاهر المتناقض، حيث لم يعد هذا الظاهر متناقضاً على نحو تام، إنه - فى رأينا - هذا العالم المتاح لنا، ويقرر برادلى نفس هذا الأمر فى قوله «طالما أنه ليس فى قدرتنا معرفة المطلق معرفة تامة، فإن الظاهر هو أقصى ما يمكننا معرفته»(١٧٤)، وبناء على هذا يتوصل إلى أن الظاهر به شمول واتساق.

-١٧٤ ibid: p. 320.

يتوجه برادلى نتيجة هذه الرؤية إلى موقف ميتافيزيقى أخلاقى، فهو لا ينسب اتساق الظاهر إلى بعد عقلى خالص انما إلى بعد عقلى متصل بنظرة أخلاقية، فيرى أن اتساق الحكم يعتمد على ما أسماه الرضى العقلى وهو نوع من القناعة بما هو متاح لنا بسبب اتساق الحكم وتوافقه مع العالم الحسى وامتداده للحقيقة، وزيادة هذا الرضى تعد دليلاً على هذا الاتساق والتوافق، وهذا الرأى الأخير يعتمد على شرعية قرار برادلى أنه كلما علت درجة الاتساق كلما كان الرضى الذهنى أكثر اكتمالاً، وكلما كان الحكم مقنعاً كان أكثر اتساقاً.

(٥٧-٣) كيف يجعل الكل The whole حاضراً فى الحكم؟ أو كيف يمكن للحكم أن يكون شاملاً؟

تعتمد إجابة هذا السؤال على ضرورة الجمع بين الموضوع والمحمول، فوجود المحمول فقط يؤدى إلى عمومية مجردة غير واقعية، ووجود الموضوع بمفرده يؤدى إلى وجود بلا معنى، والقضاء على التجريد واللامعنى يتم بالجمع بينهما، بيد أن الجمع بين الموضوع والمحمول لا يعنى - فى رأينا - أن الحكم محدداً قياساً، فالقضية «الوردة حمراء» قضية لها معنى وكذلك شاملة، بل هى من حيث التأهيل العقلى مقبولة، لكن ليس هذا الشمول هو المقصود عند برادلى، إنما يقصد ما تتضمنه القضية الآتية «هذه الوردة الحمراء التى اشتريتها بالأمس فى المحل القريب من منزلى» وكذلك القول «أنا أسكن فى الاسكندرية شارع ..... حى ...... منزل رقم ....» والقول «أنا أسكن فى الاسكندرية» . والفارق بين القضيتين المختصرة والمطولة فى الأمثلة السابقة هو أن القضية المختصرة توجد بها درجة شمول تقترب إلى التجريد والوصف العام وتفتقر إلى التحديد، أما القضية المطولة فهى شاملة لجوانب متعددة مختلفة لكن تجمعها هوية واحدة، ففيها الفعل وهو الشراء، وشئ هو الوردة الحمراء، ومكان هو

محل البائع، وزمان هو الأمس، وتخصيص وهو انتساب الموضوع إلىّ، وخاصية القرب إلخ، فضلاً عن أن القضية ذات معنى هادف وبها أهم ميزة وهى اتساق محتوياتها تماماً.

٥٨-(١٧٥) تتضمن عبارة برادلى الآتية «الأحكام تكون صادقة طبقاً لمدى قربها وبعدها عن الحقيقة»(١٧٦) ثلاث أسئلة هى:

١- ما هى الحقائق الصادقة Truths(١٧٧) التى ينسب برادلى إليها معياره.

٢- كيف تختلف الحقائق الصادقة Truths عن الحقيقة Reality.

٣- كيف لهذه الحقائق الصادقة أن تهتدى للحقيقة.

(٥٨-١) بالنسبة للإجابة عن السؤال الأول، فقد استبعد برادلى الخطأ من الحقيقة وقصرها على أحكام ظاهرية كاذبة أو صدقها جزئى، وبالتالى تنطبق درجات الصدق والحقيقة على تلك الأحكام التى لم تخطئ تماماً، بل هى أحكام تحمل قدراً من الصدق يسمح لها أن تقترب من الحقيقة، لكن لا يحدث هذا مع الأحكام الكاذبة بسبب أن الحكم الذى به قدر من الصدق يكون أكثر استجابة للتغيير والتعديل، بينما لا يستجيب الحكم الكاذب.

١٧٥- أرجع أفكار هذه الفقرة إلى مقاله چيمس الارد «درجات الصدق عند برادلى» Degrees of truth in F.H. Bradley، ص١٤٨ - ١٥٣، (سبق ذكر تفصيل المرجع هامش رقم ١٥١) وقد قدمت بعض التصرف.

١٧٦- AR: p. 321.

١٧٧- سبق القول إن برادلى يستخدم الكلمة Tuths مرادفة للأحكام الصادقة True Judgments ونحن نترجمها «الحقائق الصادقة».

(٥٨-٢) للحقيقة مضمون مثالى تتوافق أجزاؤه فضلاً عن كونها حاصلة على الصدق المطلق. أما الأحكام فهى إما صادقة على نحو نسبى وإما أنها مجردة، أحكام النوع الأول تستند إلى رأى برادلى أنه لا يوجد حكم صادق صدقاً تاماً ولا حكم كاذب كذباً تاماً وبالتالى فالأحكام نسبية فى درجة صدقها وهذا يستلزم معيار الدرجة.

أما التجريد فهو مرفوض تماماً ويعلن برادلى هذا الرأى فى كتبه الثلاثة «مبادئ المنطق» و«مقالات فى الصدق والحقيقة» و«الظاهر والحقيقة» فيقول «لا يمكن الدفاع عن التجريد فى نهاية الأمر»(١٧٨) ويقصد من هذا أن التجريد يقضى على السمات الجوهرية للوجود والموجود من مضمونه الفكرى وبالتالى لا تتحدد الأحكام، وينطبق نفس الحال على القضايا والاعتقادات.

(٥٨-٣) أما السؤال الثالث وهو كيف تهتدى الأحكام إلى الحقيقة؟ فيرى برادلى أن الحكم الخطئ يتناقض مع الحقيقة بسبب مشتملاته المتنافرة ذاتياً، وبالتالى يفتقر إلى الاتساق مع الواقع ومع الأحكام الأخرى فالقول «قامت ثورة يوليو فى عهد الملك فؤاد الأول» لا يتسق مع الواقع كما لا يتسق مع بقية الأحكام التى عرفتها عن «ثورة يوليو» وعن «الملك فؤاد الأول». وبناء على هذا يقرر برادلى أن الأحكام تتناقض قياساً على معيار الاتساق، ولذلك لكى تهتدى الأحكام للحقيقة لابد أن تتسق معها وكذلك تتسق ذاتياً، أى يتم التوافق بين أطرافها.

١٧٨- AR: p. 478.

١٢ - نظرية المماثلة

٥٩- توصل بعض الباحثين المعاصرين فى فلسفة برادلى إلى أن نظريته فى الصدق مبنية - بجانب معيارى الشمول والاتساق ونظرية درجات الصدق والحقيقة - على فكرة الهوية أو المماثلة identity فى القول «الحكم الصادق يتماثل مع الحقيقة»(١٧٩). وسوف نعرض لأربعة باحثين قالوا بهذه النظرية بين مؤيد ومعارض ومعتدل، ونعرض لهم وفق الترتيب التاريخى لنشر أبحاثهم وهم ستيوارت كاندليش، توماس بلدوين، رالف ووكر، وفيليب فيريرا(١٨٠).

١٧٩- الترجمة العربية للمصطلح الانجليزى identity هى الهوية ولكن وجدنا أن المعنى الأكثر انطباقاً وموافقة للكلمة حين تستخدم فى نظرية الصدق هو المماثلة. وقد استندنا فى هذا المعنى إلى مفهوم المصطلح نفسه فنقول على سبيل المثال إن أ يتماثل مع ب، أى يتوافق مع ب. كذلك نقول إن ثمة مماثلة قائمة بين (أ) و(ب) وترجمة ذلك بالانجليزية كما ورد إلينا:

(A) identifies with (B)

أو القول (A) and (B) are identical

والنظر ملياً إلى العبارتين السابقتين يشير إلى أن لفظ المماثلة أكثر اتفاقاً مع المضمون والمقصود. وقد رجعنا فى تحديد المعنى الاصطلاحى للكلمة إلى التحديد المعجمى الذى أقر بأن المماثلة والهوية والمطابقة من المعانى المرادفة للمصطلح (القاموس العصرى والمورد). ولم نستخدم المطابقة حتى لا يكون ثمة خلط بينها وبين نظرية التطابق carrespondence والمعروف أن برادلى رفض هذه النظرية.

قد يقال أن لفظ «الهوية» يعبر أيضا عن المعنى حين نقول إن هنالك ثمة هوية بين (أ) و(ب)، أو نقول يدخل (أ) و(ب) فى هوية واحدة، لكن لا أعتقد فى هذا التعريف نظراً لبعده عن المعنى المقصود عند الباحثين فضلا عن أن الهوية مرتبطة بالفرد الواحد الجزئى.

١٨٠- ١- ستيوارت كاندليش S. Candlish أستاذ بجامعة استراليا الغربية، أنظر بحثه:

The Truth about F.H. Bradley. Mind. vol. VIII (98). No. 341- July. 1984.

٦٠- يقرر كاندليش فى مقالته المشار إليها آنفاً أن نظرية برادلى المتأخرة فى الصدق هى نظرية المماثلة، ويبين لنا أن هذه النظرية تنزع إلى جعل الصدق علاقة تقوم بين اللغة والواقع، ويستند فى هذا الرأى إلى أن «أنطونى مانسر» فى كتابه «منطق برادلى» قد أصر على محاولة جعل اللغة والواقع متحدين(١٨١).

يرى كاندليش أن النظرية تهتم ببحث أن الصدق هو تماثل س مع الواقع، أى أن س هى حامل الصدق Truth bearer، وأفضل توصيف لهذا الحامل هو أنه فكر فى صورة حكم، وبناء عليه يكون الحكم صادقاً إذا كان متماثلاً مع الحقيقة. كذلك تقوم علاقة التماثل بين الصدق والمعرفة من جانب وبين المعرفة والواقع من جانب آخر، ولذلك يتوصل كاندليش إلى أن برادلى قد استخدم نظرية المماثلة بدلاً من نظرية التطابق، لأنه وجد أن ثمة أموراً تقبل الانطباق على الواقع ولكنه يعتبر التطابق مجرد نسخ للواقع، والنسخ كما سبق بيانه مرفوض لديه.

بيد أن هذه القضايا التى عرضها كاندليش ليست قضايا مسلم بها تماماً، بل هو

- ٢- توماس بلدوين T. Baldwin أستاذ بكلية الفلسفة جامعة كمبردج، أنظر بحثه:
The Identity Theory of Truth, Mind. Vol (100) No 397. January. 1991.

٣- رالف ووكر R. Walker زميل ومدرس فى الكلية المجدلية بجامعة أوكسفورد، أنظر بحثه:
Bradly's Theory of Truth, An Essay in "Appearance versus Reality" edited by Guy Stock. Clarendon Press. Oxford, 1998.

٤- فيليب فيريرا Ph. Ferreira أستاذ بجامعة كونز تاون، بنسلفانيا، أنظر مؤلفه:
Bradley and The Structure of Knowledge. State University Press. New York Press, 1999.

١٨١- A. Manser: Bradley's Logic. Oxford. Blackwell. 1983. p. 133.

يعرض فكرة تقبل التحليل والتفسير والقبول والرفض، ولذلك فهو يقول في نهاية الفقرة الثامنة ص٣٤٢ «ليس هدفي هنا هو الدفاع عن نظرية المماثلة في الصدق» ثم يقول في بداية الفقرة التاسعة «إن نظرية المماثلة في الصدق ربما تكون أكثر من مجرد طرفة تاريخية، وهذا يدعونا أن نتساءل عن علاقتها بمعيار الاتساق ودرجات الصدق، وسوف نجد أن الأمر المثير للدهشة هو أن المعيار والنظرية لم يقاما على نظرية المماثلة وإنما اعتمدا على واحدية برادلي(١٨٢).

يعرض كاندليش لمقالة برادلي «في الصدق والاتساق» المنشورة في كتاب «مقالات في الصدق والحقيقة» محللاً ومفنداً مضمونها مقرراً أنه لا يوجد فيها ما يؤدي إلى الرجوع إلى نظرية المماثلة في الصدق من جانب برادلي(١٨٣)، كذلك يقوم بعرض أراء رسل في هذا الموضوع ويرى أن رسل قد تأثر بها سلباً لأنه قبل نظرية التطابق carrespondance في الصدق بعد رفضه لنظرية الاتساق. إذن لم يقتنع رسل بنظرية المماثلة بسبب أنها تفرض توافقاً بين الحكم والواقع أو عدم استقلال الواقع عن الحكم ولذلك وجد أن نظرية التطابق تفي بغرض الاستقلال فتقرر أن الواقع الذي يتطابق الحكم معه هو شئ مستقل تماماً عن الحكم، ولذلك يرى رسل أن المماثلة تصلح للمثالية المطلقة ولا سيما عند برادلي»(١٨٤).

٦١- يعتبر توماس بلدوين من أشد المتحمسين لنظرية المماثلة، فيقرر في بداية

١٨٢- Candlish: p. 342.
١٨٣- ibid: p. 343.
١٨٤- ibid: p. 347.

مقاله «نظرية المماثلة فى الصدق» أن برادلى لا يصنف من أنصار الاتساق بل من أصحاب نظرية المماثلة وهى النظرية التى تعنى أن صدق حكم ما يكمن فى مماثلة مضمون الحكم مع الواقع(١٨٥)، ونتيجة لهذه الحماسة الزائدة للنظرية، قام بلدوين بتفسير معظم نظريات برادلى فى الصدق كالاتساق والشمول ودرجات الصدق والحقيقة بأنها مشتقة من نظرية المماثلة، ويرى أن برادلى عرض لهذه النظرية فى مقاله «الصدق والنسخ» المنشورة فى كتاب «مقالات فى الصدق والحقيقة» فقرر فيها أهمية النظرية فى مجال الصدق، ويدعم بلدوين هذا الرأى بنص استعاره من برادلى وهو «الحقيقة لا توجد خارج حدود الصدق، فالمماثلة القائمة بين الصدق والمعرفة والحقيقة على الرغم من صعوبتها إلا أنها ضرورية وأساسية(١٨٦).

يرى بلدوين أيضا أن النظرية لها جذور فى «مبادئ المنطق» فالصدق والكذب – كما هو مقرر فى هذا الكتاب – يعتمدان على علاقة أفكارنا بالواقع حيث تستند حجة الاعتماد على نظرية المماثلة، فالحكم الصادق ليس مجرد فكرة وإنما هو يصدق نتيجة مماثلة مع الواقع، بل هو واقعة تحدث فى الواقع(١٨٧). وفى الأجزاء الختامية يرى بلدوين أن برادلى يصرح بنظرية المماثلة بوضوح فى قوله «ما الذى يضمن لنا تلك المماثلة بين الصدق والواقعة، لكننا نميل بالتأكيد إلى الاعتقاد فيها»(١٨٨)، كذلك يقول

١٨٥- Baldwin: p. 35.

١٨٦- ETR: P. 113.

١٨٧- PL: vol 1. p. 10.

١٨٨- ibid: vol. 2. p. 590.

برادلى «هل أغامر بالشك فى صدق هذا الحمل، وهل هو متماثل مع الواقعة، أو أنه قد بدا فى النهاية أنه يمتلك تلك المماثلة»(١٨٩).

ويقرر بلدوين أن الشكوك الأخيرة تقود برادلى إلى مشكلة منهجية بشأن العلاقة بين الميتافيزيقا والمنطق(١٩٠)، ولذلك لم يقم بحل المشكلة فى «مبادئ المنطق» وإنما حلها فى كتابه «الظاهر والحقيقة» إذ يعتقد بلدوين أن برادلى لم يتخلى عن نظرية المماثلة فى هذا الكتاب أيضاً.

وتظهر نظرية المماثلة فى «الظاهر والحقيقة» من خلال فكرة المطلق، فيقول بلدوين «يبدأ برادلى بتقرير أن تفكيرنا صادق حين يُفهم الصدق فى أسلوب مصبوغ بنظرية المماثلة، فالفكر منعزلاً عن الواقع لا يعنى شيئاً ولكى يكتمل الفكر لابد أن يتماثل مع الواقع، وبذلك لا يمكن أن يوجد حكم صادق على نحو مطلق. إن صدق الحكم يفترض بالضرورة ارتباط محتواه أو تماثله مع الواقعة المجسدة المتحققة دون الاعتماد فقط على المضمون المثالى، إذن الصدق يتطلب دائماً خاصية جوهرية هى مماثلة بين الأفكار والحقيقة، أو بين الفكرة والواقعة»(١٩١).

من الواضح أن بلدوين قام بتحوير أقوال برادلى وجعلها تتلائم مع وجهه نظره، فقام بتفسير معظم أرائه بوصفها مبنية على نظرية المماثلة، فهو يقول مؤكداً على هذا المعنى «الاتساق المنسوب إلى برادلى يرتبط بما أقول - أى بنظرية المماثلة -

---

١٨٩- ibid.

١٩٠- Baldwin: p. 37.

١٩١- ibid: p. 38.

فالتفسير البسيط لهذا هو أن الصدق له جانبان: أنه يتماثل مع الحقيقة، والحقيقة نفسها تكون نظاماً متسقاً شاملاً واحداً، ونتيجة لهذا فإن الحكم يصدق لو كان مضمونه شاملاً وإذا انتمى إلى النسق المتسق للعالم، بهذا الأسلوب يمكن أن تشتق نظرية الاتساق من نظرية المماثلة»(١٩٢).

وفى نهاية الجزء الأول من مقاله يقوم بلدوين بتفسير نظرية برادلى فى درجات الصدق من منظور نظرية المماثلة فيرى أن الأحكام تكون أكثر صدقاً إذا ما كانت أكثر تماثلاً مع الحقيقة. كذلك يميز بين الصدق المطلق والصدق الجزئى من حيث تماثل الأول مع الحقيقة وتماثل الثانى مع الواقع المحسوس، ويتم التماثل فى الجانبين وفقاً لتفاوت درجاته.

وينهى بلدوين بقوله «ناقشت هنا التصور الأساسى للصدق عند برادلى ورأيت أنه هو الذى يظهر فى نظرية المماثلة، وهذه وجهة نظر شخصية تعبر عن تحديد مفهوم للمذاهب الموجودة»(١٩٣).

٦٢- أما رالف ووكر فلم يكن متحمساً لنظرية المماثلة فى الصدق ويرى أن برادلى ليس من أنصارها رغم أنه يوازى بين الصدق والحقيقة. كذلك يقرر ووكر أن نظرية المماثلة لا تظهر عند برادلى بالشكل المألوف وإنما يظهر بدلاً منها نظرية التطابق، ويعلن هذا الرأى فى قوله «من الخطأ أن ننسب إلى برادلى نظرية المماثلة فى الصدق، فالنظرية الدقيقة عند برادلى بشأن الصدق هى أن الصدق اتساق»(١٩٤).

١٩٢- ibid: p. 39.

١٩٣- ibid: p. 40.

١٩٤- Walker: p. 96.

٦٣- أما فيليب فيريرا فموقفه متحفظ جداً، وقد ناقش هذه النظرية في ثلاث صفحات فقط من مؤلفه الضخم عن برادلى وبالتحديد فى الصفحات الأخيرة من الفصل السابع المعنون «الاتساق والخطأ». كذلك لم يبين ما إن كانت النظرية واضحة عند برادلى أو أنه استعان بها لتكون سنداً لكل نظريات الصدق كما فعل سابقوه، فيقول: «أما بشأن نظريات المماثلة فهذا الإدعاء يحمل كثيراً من القوة، ويمكن للمرء أن يفسر نظريات برادلى بطريقة شرعية من خلال هذه الخطوط، وبطبيعة الحال فإن تفصيلات نظرية المماثلة ستكون هامة»(١٩٥).

نستنتج من القول السابق أن فيريرا يؤكد على أهمية النظرية، وسؤالنا هو لماذا لم يقم بتفصيلها بدقة، وإنما فسرها على نحو عابر حين قال «صحيح أن برادلى يرى أن العقل لدى الشخص الذى يصدر الحكم يتوافق مع موضوعه فى تقرير صادق، وهذا يعنى أن حصول التقرير على الصدق يعتمد على أن عقل الشخص المقرر يتماثل مع الموضوع أو يصبح هو والموضوع متماثلين. وإذا كان ذلك هو المقصود من نظرية المماثلة فلابد أن تتكيف معها نظرية برادلى»(١٩٦).

ويقرر فيريرا أن ذكر نظرية المماثلة هنا يرجع إلى أن تصور برادلى للصدق يقترب بشدة من أراء مؤيدى هذه النظرية بشكل عام وفى الصدق بشكل خاص، وإن كان برادلى نفسه يقدم اعتراضات كثيرة على هذه النظرية مستبدلاً بها نظرية الاتساق. وهذا الرأى الأخير يدعم وجهة نظر فيريرا وهو أن مؤيدى النظرية

١٩٥- Ferreira: p. 152.
١٩٦- ibid.

يستنبطون من نظريات الفلاسفة ما يتناسب مع رأيهم من أجل تدعيم هذه النظرية، هذا من جانب ومن جانب آخر يبدو أن برادلي استخدم لفظ «المماثلة» لغوياً فقط في أقواله كأى لفظ عادى ولم يقصد من ورائه أى غرض منهجى أو فلسفى ودليلنا على ذلك أنه لم يحدد فصلاً أو جزءاً مفصلاً عنها.

٦٤- أما رأينا فى هذا الموضوع فهو ليس معتدلاً ولا متحفظاً، إنما هو معارض لإدعاء المماثلة، فقد بدا لنا أن الصدق عند برادلي يتوجه مباشرة إلى نظرية الاتساق وقد تم بيان ذلك فى هذا البحث. أما أسباب فى نسب المماثلة لبرادلي فهى:

أ- لم يطبق برادلي الاتساق فى جانب الفكر وإنما طبقه أيضاً على الواقع أو معطيات العالم الخارجى والذاكرة.

ب- لم يستخدم برادلي التجريدات الخالصة ولا الأسلوب البيانى والاستعارى اللغوى وهى الأمور التى فعلها سابقوه، إنما كانت نظرته محايدة جداً نتيجة اهتمامه بأفكار ونظريات واقعية فى متناول العقل الأمر الذى يجعله قريباً من الفلسفة التجريبية، وخير دليل على ذلك أن الصدق ليس نموذجاً منعزلاً عن الواقع وإنما مطلوب له ضرورة التحقيق واقعياً.

جـ- آمن برادلي بحدود المعرفة التجريبية والطبيعة الإنسانية المتناهية وإمكانية الخطأ، ولذلك كانت نظرته للحقيقة والمطلق مقصورة على تلك القدرة المتناهية بوصفهما يمثلان الخبرة الإنسانية المنظمة وعلاقة تلك الخبرة بالمبدأ العام المنظم للأفعال الجزئية للشخص.



المراجـع

١- مؤلفات برادلى

1- Appearance and Reality, The Clarendon press, Oxford, 1930.

2- Collected Essays, The Clarendon press, Oxford, 1935.

3- Essays on Truth and Reality, The Clarendon press, Oxford, 1914.

4- Principles of Logic, Oxford University press, London, 1928.

٢- دراسات عامة

5- Allard, James W.: "Degress of Truth in F.H. Bradley", An Essay in "Prespectives on the Logic and Metaphysics of Bradley, edited by W.J.Mander. Theomms press Pristol, England, 1996.

6- Alexander, H.B: The Problems of Metaphysics, AMS press, New York, 1967.

7- Baldwin, T: The Identity Theory of Truth, Mind, vol. 100, No. 397. Janury, 1988.

8- Candlish, S: The Truth about F.H. Bradly, Mind, Vol. 98, No. 391, July, 1989.

9- Copleston, F: A History of Philosophy, Vol. 8, part 1, Image book, New York, 1967.

10- Church, R.W: Bradley's Dialectic, George Allen, London, 1942.

11- Edward, Craic: (ed.) Routledge Encyclopedia of Philosohy, Vol. 19, New York, 1998.

12- Edwards, p: (ed) The Encyclopedia of Philosophy, Vols. 1-2, Macmillan, London, 1967.

13-Ewing, A.C: The fundamental Questions of Philosophy, Routledge and Kegan Paul, London, 1985.

14- Ferreira, Ph: Bradley and the Structure of Knowledge, State University of New York, 1999.

15- Hololcroft, David: "Bradley and the Floating Ideas", An Essay in "Appearance Versus Reality" edited by Guy Stock, Clarendon press, Oxford, 1998.

16- Hondrich, Ted: (ed). Oxford Companion to Philosophy, Oxford University press, 1995.

17- Manser, A: Bradleys Logic, Oxford, Blackwell, 1983.

18- McTagggrt J.M.E.:The Nature of Existence, Cambridge University press, 1988.

19- Passmore, J: A Hundred Years of Philosophy, Penguin books, 1975.

20- Reid, L.A.: Kenowledge and the Truth, Macmillan, London, 1923.

21- Russell, B.: The Problems of Philosophy, Oxford University press, London, 1959.

22- Saxena, D: Studies in the Metaphysics of Bradley, George Allen, London, 1967.

23- Sprigge, T.L.S.: James and Bradley, American Truth and British Reality, Open Court, Chicage, U.S.A. 1993.

24- Wallker, R.: "Bradley's Theory of Truth" An Essay in "Appearance Versus Reality" edited by Guy Stock, Clarendon press, Oxford, 1998.

25- Wollheim, R.: Bradley, Penguin book, London, 1959.

٣- مراجع باللغة العربية

٢٦- رودلف متس: الفلسفة الانجليزية فى مائة عام، ترجمة د/ فؤاد زكريا، مراجعة د/ زكى نجيب محمود، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ .

٢٧- د/ محمود فهمى زيدان: من نظريات العلم المعاصر إلى المواقف الفلسفية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢ .

٢٨- ــــــــــــــــــــ: نظرية المعرفة، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٩.

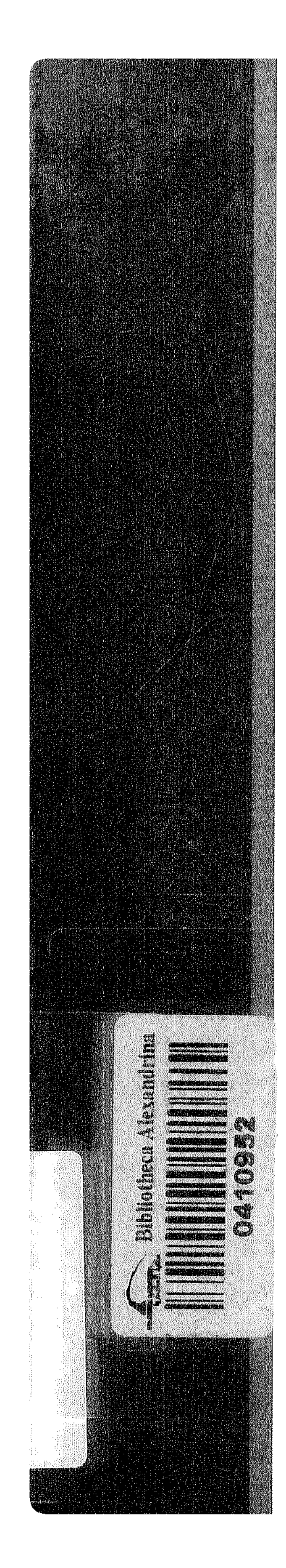











Bibliotheca Alexandrina
0410952